ثلاث مجالس، دولة الإمارات العربية المتحدة، دبي، مسجد الشيخ راشد بن مكتوم رَحِمَهُ اللَّهُ،
المجلس الأول: عصر الجمعة ٣٠ شوال ١٤٣٤
المجلس الثاني والثالث: صبيحة السبت ١ ذي القعدة ١٤٣٤هـ

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تعليقاتٌ على

# الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت

تصنيف:

**أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا**

رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى

لفضيلة الشّيخ

**عبد الرّزّاق بن عبد المحسن العبّاد البدر**

حفظهما الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

**الشيخ لم يراجع التفريغ**

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأصلح لنا شأننا كله، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا.

أما بعد..

فهٰذه رسالة قيِّمة موسومة بـ«الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت» للإمام أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء الفقيه العالم المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وهي رسالة نافعةٌ جدًّا في بابها، كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ استجابةً لطلب سائل أراد وصيَّةً جامعة ونصيحةً بليغة، فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هٰذه الرِّسالة مبيِّنًا أنَّها تجمع للمسلم بإذن الله تبارك وتعالىٰ السَّلامة في الدُّنيا والآخرة، وتنفعه نفعًا عظيمًا في أولاه وأخراه.

وهي رسالة قيِّمة مع اختصارها ووجازتها حوت خيرًا كثيرًا ونفعا كبيرًا.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر لمؤلفها، وأن يجزيه خيرا، وأن ينفعنا بها، إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل. ونبدأ مستعينين بالله.

قال الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا:

الْحَمد لله ربِّ الْعَالمين، وَالْعَاقبَة لِلْمُتقين، وَصلىٰ الله علىٰ سيد الْمُرْسلين مُحَمَّد النَّبِي وَآله الطَّاهرين.

وَبعد.. أحسن الله عونك وتوفيقك وصونك وتحقيقك، فَإِنَّك سَأَلت تَعْجِيل رِسَالَة تنفعك فِي أولاك وأخراك، وَتجمع لَك سَلامَة دينك ودنياك، فأتيتُك بهَا مختصرة يُسْتَدلّ بأبوابها علىٰ مَفْهُوم خطابها، نفعنا الله وَإِيَّاك بهَا وَجَمِيع الْمُسلمين إِن شَاءَ الله تَعَالَىٰ.

---

استهلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ رسالته بحمد الله، والصلاة علىٰ رسوله ﷺ، وسبق ذكرُ السلام وقد يكون السَّقط من النسَّاخ، أو أنه فاته كتابةً ولم يفته نطقًا، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾[الأحزاب].

ثم بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب تأليف هٰذه الرِّسالة الموجزة، وأنَّ ذلك كان بسبب أنَّ سائلًا طلب منه رسالةً يعجِّل فيها المنفعة، وتكون مختصرةً وجامعة؛ فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذه الرِّسالة مع دعوات لمن طلب منه، ودعوات لعموم المسلمين. وهٰذا من جميل نُصْحه وحُسن بيانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

ولعلك بهذا الاستهلال تُدرك أن هٰذه الرِّسالة عبارة عن وصيَّة جامعة تجمع لك سلامة الدِّين والدُّنيا، وفيها نفع لك في أولاك وأخراك.

وجاء بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ مختصرةً، ونبَّه أنه يُستدل بأبوابها علىٰ مفهوم خطابها، وهٰذا يدل علىٰ أن أبواب الرِّسالة الأربعة التي اشتملت عليها حُرِّرت باعتناء وجمعت شواهدها ودلائلها بدقة وعناية.

## بَابُ نَجَاةِ الإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (**بَابُ نَجَاةِ الإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ**) هٰذا الباب عقده رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لبيان عِظَم شأن اللِّسان وخطورته؛ وذلك أنَّ اللسان عليه المدار، وهو مِلاكُ أمر العبد، فمتىٰ ملك العبد لسانَه ملك جميع أعضائه، ومتىٰ مَلكه لسانُه فلم يصنه هلك وهلكت تبعًا لذلك جميع أعضاؤه، وقد قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا».

فاللِّسان مِلاك الأمر وعليه المدار، فمن صان لسانه وحفظه فقد حفظ نفسه وصانها، ومن أطلق للسانه العنان، وتركه يتكلم بدون قيد أو شرط أهلك نفسه وأعطبها.

ولهٰذا قال: (**نَجَاةُ الإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ**) أما أن نجاته بالصمت فهٰذا منصوص الحديث الذي صدر به رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة، وأما أن النجاة بحفظه أي عندما يتكلم، والمراد بحفظه مما يُسخط الله ويغضبه جل في علاه؛ فهٰذا تأتي شواهده ودلائله التي ساقها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١ - حَدَّثَنَا أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْفَوَارِسِ الْحَافِظُ إِمْلَاءً، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الصَّوَّافُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بن أَحْمد ابْن حَنْبَل، حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَىٰ، حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا».

أورد رَحِمَهُ اللَّهُ في صدر في هٰذه التَّرجمة حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»، والمراد بـ(صَمَتَ) سكت ومنع نفسه من الكلام. وليس المراد بالمنع منع النفس من الكلام أي مطلقا لا يتكلم، هٰذا ليس مطلوبا شرعا، ليس مطلوبا شرعا أن يصمت عن الكلام بما في ذلك ذكر الله وحمده والثناء عليه وغير ذلك هٰذا ليس مطلوبا شرعا؛ بل هٰذا فيه مخالفة للشرع، لٰكِن الصمت المطلوب الصمت عن الشر وعن السوء والصمت كذلك عما يشتبه علىٰ الإنسان لا يدري أهو خير أو شر.

وما ريد أن يتكلم به الإنسان لابد أن يتفكر فيه قبل الكلام:

فإن تبيَّن أنه خير بين تكلم به ولا حرج.

وإن تبين أنه شر بين منع نفسه من التكلم به.

وإن لم تبين له أهو خير أو شر؛ فإنه أيضا يمنع نفسه من التكلم به لقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام».

ثم إنَّ الإنسان عملًا بهذا الحديث لو منع نفسه مما لا بأس به من مباح الكلام خشية أن يزل أو يخرج منه كلمة لم ينتبه لها لم يُلق لها بالًا فآثر الصمت علىٰ الكلام ففعله هٰذا يُعدُّ نجاة؛ لٰكِن أعلىٰ منه رتبة وخير منه منزلة من يتكلَّم لكنه يضبط كلامَه فإذا تكلَّم بخير ونُصح ونفع وإفادة فكلامه غنيمة، وإذا سكت فسكوته سلامة، وإذا تكلَّم بشر فكلامه هلكة.

فصارت ثلاثة منازل: غنيمة، وسلامة وهلكة.

خير هٰذه المنازل منزلة الغنيمة؛ أن يتكلم بما يُنتفع به، بما يفيد الناس وينفعهم في دينهم ودنياهم، كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في نصحه للسَّائل قال: (رِسَالَة تنفعك فِي أولاك وأخراك) عندما يتكلم الإنسان، أو حتىٰ أيضا يكتب من خلال الوسائل الحديثة التي استجدَّت في هٰذا الزمان، وهي متنوِّعة وكثيرة، وأصبح لابدَّ أن يكون لكثير من الناس من مشاركة فيها يومية، وربما مرات كثيرة في اليوم.

فهٰذا الذي يُكتب هو جزء من كلامك الذي يحاسبك الله عليه يوم تقف بين يديه، وإن كان بعض الناس ربما كتب من خلال هٰذه الوسائل باسم مجهول علىٰ الناس، وهو يخفىٰ علىٰ رب العالمين،***١٧ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[ق]، وإن استخفىٰ من الناس باسم مجهولٍ فالله مطَّلع عليه وعليم بما يقول، وسيرىٰ حصادَ ما كتب وتكلَّم به يوم يقف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال سفيانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الصَّمتُ زَيْن العالم، وسِتْر الجاهل. (زين العالم) أي جمال له، (وستر الجاهل) أي أن جهله لا يظهر؛ لٰكِن لو خاض في المجالس وترك لنفسه الكلام والخوض في الأمور والمسائل تبيَّن ما يحمله من جهل، ولو صمت لنجا وسلم في الوقت نفسه.

وقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «من صمت نجا» أي سلم؛ تحققت له السلامة وأمن من الهلكة، والمقصود بـ(الصمت) أي الصمت عن الكلام فيما لا يعنيه وفيما يضره يوم يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

٢ - حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بِشْرَانَ السُّكَّرِيُّ الْمُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».

---

أورد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هنا حديث أبي هريرة قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ» ذكر أوَّلًا الإيمان بالله الذي هو ﷻ المقصود المعبود الملتجأ إليه جلَّ في علاه، «وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الذي هو يوم الجزاء.

ثم ذكر ما يقتضيه هٰذا الإيمان الصادق لله واليوم الآخر قال: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

ومعلوم أن المتكلم لا يمكن أن يتكلَّم بهذا الانضباط -لا يقول إلا خيرا- إلا إذا كان يزن كلامه قبل أن يتكلم به، ويتفكر في كلامه ويتأمل قبل أن يتكلم به.

أما ما لا يزن كلامه ويتكلم رأسا بما يرد في ذهنه دون تفكر وتأمل؛ لاشك أنه سيخرج منه من الكلام الآثم والقول الخاطئ شيء كثير، وربما لا يُلقي لذلك بالًا ولا يضرب له حسابا. وهٰذا الذي أهلك أكثر الناس وأوردهم المهالك.

وإذا كان السَّلف في احترازهم وحِرصهم مع عِظم حفظهم لألسنتهم يقول القائل منهم كما يُنقل عن عبد الله بن مسعود وغيره: هٰذا الذي أوردني الموارد ما علىٰ الأرض أحوج من طول سجن من اللسان. ونحو ذلك من الكلام، وهم من أجحسن الناس صيانة لألسنتهم وحفظا لها.

وفي الناس من لا يبالي ولا يعتني بلسانه ولا يحرص علىٰ صيانته والعناية به.

إذن قوله: «فَلْيَقُلْ خَيْرًا» هٰذا فيه دعوة واضحة إلىٰ أن تتأمل في كلامك هل هو خير أو شر، فإن تبين أنه خير فقل هٰذا الكلام الذي زوَّرته في نفسه، وإن تبين أنه شر فاحذر أشدَّ الحذر؛ لأنه سيدخل في سيئ عملك ويحاسبك الله ﷻ عليه، وإن اشتبه عليك كما تقدَّم «فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

قال: «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» أي فليمنع نفسه عن التكلم بهذا الكلام الذي أراد أن يقوله ولم يتبين له هٰذا الكلام خير، فالواجب أن يصمت ما لم يتبين له أن الكلام الذي سيتكلم به خيرا.

ولهٰذا قال العلماء: ليس الكلام مأمورٌ به علىٰ الإطلاق، ولا السكوت كذلك -أي منهي عنه علىٰ الإطلاق-؛ بل لابد من الكلام بالخير ولابد من السكوت عن الشر.

وكان السَّلف يمدحون الصَّمت عن الشر، وعمَّا لا يعني لشدَّته عن النفس، أمرٌ شديد علىٰ النفس أن يصمت الإنسان عن الشر، أو يمنع نفسه من التكلم فيما لا يعنيه، فكانوا يمدحون مَن كان كذلك؛ لأن كثير من الناس يقع في هٰذا الأمر، ولا يصون نفسه من الوقوع فيه إلا من وفَّقه الله ﷻ وأعانه.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به. فأما الصَّمت الدَّائم فبدعة منهيٌّ عنها. انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

ومما يُنقل عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا لسان قل خيرا تغنم، أو اسكت عن سوءٍ تسلم من قبل أن تندم.

فهٰذا الحديث انتظم أمران: إما تكلُّمٌ بخير، أو سكوتٌ عما سوىٰ ذلك. ولابد من مراقبة الله في التكلم وكذلك في السكوت فيهما معا، إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكتّ فاذكر نظره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليك؛ لتكون متَّقيا لله في سكوتك وفي كلامك.

سالم موقع التفريغ للدّروس العلميّة والبحوث الشّرعيّة www.attafreegh.com

٣ - أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ السُّكَّرِيُّ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أبوعاصم عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**».

هٰذا رواية أخرىٰ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيها قال: «أَوْ لِيَسْكُتْ» بدل قوله: «**أو ليصمت**»، قال الراغب: الصمت أبلغ من السكوت؛ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة له للنطق، وفيما له قوة للنطق، ولهٰذا قيل لما لا نطق له: الصامت.

كانوا يفرقون بين الأموال ويقسمونها إلىٰ قسمين: أموال صامنة أو أموال ناطقة.

يقصدون بالأموال الناطقة مثل بهيمة الأنعام كل ما لها صوت من الأموال.

ويقصدون بالصامت أي الذهب والفضة ونحو ذلك من الأموال التي ليس لها صوت وليس لها كلام، فيقولون: مال صامت، ومال ناطق.

والتعبير عن المال بالمال الذي لا صوت له، بأنه صامت جاء في الحديث في «صحيح البخاري» حديث أبي هريرة لما ذكر النبي ﷺ الغلول وعظَّم أمره قال: «لا يأتين أحدكم علىٰ رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك» وذكر أيضا البقرة وذكر الشاة وذكر الجمل، ثم قال: «لا يأتين أحدكم وعلىٰ رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك»، والمراد بقوله: «لا يأتين أحدكم وعلىٰ رقبته صامت» أي المال الصامت مثل الذهب أو الفضة استلبها وغلَّها في الحياة الدُّنيا، فإنه يأتي والعياذ بالله يحمل ما غل فوق عنقه يوم القيامة، ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَارِثِ التَّمِيمِي رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْفَقِيهُ النَّجَّادُ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ يَزِيدَ بن حَيَّان، عَنْ عَنْبَسِ بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَىٰ طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ.)

هٰذا أثرٌ عظيم أورده المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عن الصَّحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقسم فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه بالله (الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَىٰ طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ) وذلك لعِظَم خطورة اللسان، وأنَّ اللسان إن أطلق له صاحبه العِنان يتكلم متىٰ شاء بما شاء بدون ضابط وبدون قيد فإنَّه يُهلك صاحبه؛ لأن كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلَّاما كان من ذكر لله وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وما والىٰ ذلك.

أما إذا كان يتكلَّم بدون قيدٍ فيخرج من كلامه أو يخرج منه كلامًا محرَّمًا كلاما منهيا عنه، فهٰذا أخطر ما يكون مضرة علىٰ الإنسان وهلكة له في دنياه وأخراه.

ولهٰذا يُقسم هٰذا القسم ليبيِّن خطورة اللسان بأنه ليس (عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَىٰ طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ).

ومراده بـ(طُولِ سَجْنٍ) أي منع اللسان من إخراج الكلام إلا إذا تبيَّن له سلامته، وأنه خيرٌ لا شرَّ فيه فإنه يتكلم، وما سوىٰ ذلك يطبق عليه ويمنعه من الخروج، وقد أُعين علىٰ سجنه للسانه ومنعه من التكلُّم بطِباقين الأسنان والشفتين، كل هٰذه حواجز؛ كلها تحجز الكلام وتمنعه، فلا يُخرج من الكلام إلا الكلام الذي يتحقَّق أنه خيرٌ لا شر فيه، وما سوىٰ ذلك فليحبس لسانه وليمنعه من الكلام، صيانةً لنفسه من الهلكة.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٥ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رزقويه الْبَزَّاز، أخبرنَا إِسْمَاعِيل ابْن مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمد الزّبيرِي، قَالَ: حَدثنَا عمرو بن عَبْدِ اللهِ النَّخَعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

أورد هنا هٰذا الحديث العظيم -حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وهو طويل ذكر المصنف منه موضع الشاهد، والحديث بطوله هو أحد أحاديث «الأربعين» للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، واقتصر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ تمام الحديث، وآخره وهو موضع الشاهد منه لهٰذه الترجمة.

قال: (عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟) هل يحاسبنا الله يوم نقف بين يديه علىٰ جميع الكلام الذي تكلمنا به في حياتنا الدنيا؟ كل هٰذا سنحاسب عليه؟

هٰذا السؤال من معاذ مبني علىٰ كلام من النبيِّ ﷺ قبل ذلك في آخر وصاياه قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» لما أعطاه الوصايا الجامعة والنصائح البليغة ختم ذلك بقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قال: قلت بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عليك هٰذا» هٰذا ملاك الأمر. (قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟) لما قال له النبي ﷺ: «كف عليك هٰذا» إذا كفيت السان ومنعته هٰذا ملاك الأمر، ما معنىٰ ملاك الأمر أي أن الزمام أصبح بيدك وأنت الذي تملك.

ولهٰذا يقولون: الكلمة قبل أن تتكلم بها تملكها أنت، وإذا تكلمت بها ملكتك، وأصبحت متحملا تبعة هٰذه الكلمة، بينما إذا مسكت الكلام وصُنت نفسك عن الخوض فيما لا يعني، أو في ما هو محرم فإنك أخذت بملاك الأمر وأخذت بالزمام زمام الأمر.

ولهٰذا جاء معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا السؤال (قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ) معنىٰ (ثكلتك) يعني فقدت وهٰذا من الكلام الذي يطلق ولا يراد حقيقته، يعني ظاهره الدعاء ولا يراد حقيقته.

يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»، قال: «حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» يعني ما يقتطعه من الكلام شُبِّه بما يحصد بما يحصد من الزرع إذا جُزّ، إذا تكلم الإنسان كأنه وضع بذورا حصادها يجده يوم يقف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هنا يأتي المِحَك في الامتحان لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان وكلنا يعلم أن الكلام لدىٰ جميع الناس في كثير من المجالس نوع من الفاكهة، نوع من تمضية الوقت، نوع من التسلية، وهٰذا أمر تطلبه النفوس تريده.

ولهٰذا يجتمع الناس علىٰ هٰذه الفاكهة: الكلام، ويجلس بعضهم الساعتين الثلاث والأربع يتكلمون ويتكلمون، ويشعر بأنه بكلامه هٰذا يتفكه ويتمتع ويتلذذ، فهو أمر تطلبه النفس، النفس تشتهيه، وهنا يأتي الامتحان كيف يستطيع الإنسان أن يضبط نفسه، وهو سيؤاخذ يوم القيامة بكل ما يتكلم به.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

استمعوا جيدا إلىٰ كلام عظيم جدا للإمام الناصح المربي ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة، والكذب، والمراء، والثناء علىٰ النفس تعريضا وتصريحا، وحكاية كلام الناس)**، يعني يحاكي كلام فلان وكلام فلان علىٰ سبيل التندر والتفكه **(والطعن علىٰ من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي)** في نفس الإنسان للتكلم بهذه الأشياء ومعها أمر آخر قال: **(فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان؛ فيضعف الصبر)** داعي من الداخل قوي ليتكلم بمثل هٰذه الأمور علىٰ سبيل التفكه وملء الوقت وشغل الفراغ، قوة داعي في داخلة الإنسان قوية جدا وحركة اللسان يسيرة **(وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك» فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فَقَالَ ﷺ: « وهل يكب الناس في النار علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد؛ فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهٰذا تجد** -انتبه لكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ- **الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلىٰ وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والمفكهة في أعراض الخلق.** انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ. [1]

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص٧٠).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٦ - أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ الْمُؤَدِّبُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيِّ بْنُ الصَّوَّافِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ وَيُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ وَحُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

ثم أورد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ») ويراد بالمسلم أي كامل الإسلام.

ومعلوم أن الدين مراتب: إسلام وأعلىٰ منه إيمان، وأعلىٰ منه الإحسان.

وقد جُمعت هٰذه المراتب الثلاثة في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. فبُين في ذلك الحديث العظيم كل مرتبة من هٰذه المراتب الثلاث.

فهٰذا بيان للمسلم كامل الإسلام أنه من سلم المسلمون من لسانه ويده، فالإسلام معه السلامة، فإذا كان مسلمًا كامل الإسلام لا يؤذي أحدا لا بلسانه ولا بيده.

ما معنىٰ ذلك؟

أنَّ نقْصَ ذلك فيه بمعنىٰ أنه يوجد منه أذىٰ قولي أو فعلي تجاه إخوانه المسلمين فهٰذا دليل علىٰ نقص إسلامه.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في شرح هٰذا الحديث: (**أي هٰذه صفة المسلم فمن خرج عنها خرج عن الإسلام ومن خرج عن بعضها خرج عن الإسلام في ذلك البعض.**) [1] بمعنىٰ أنه إذا كان يوجد منه أذىٰ قولي لإخوانه المسلمين أو أذىٰ فعلي للإخوانه المسلمين فهٰذا نقص في إسلامه.

فإذن المسلم كامل الإسلام هو من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ورتبة الإيمان أعلىٰ من هٰذه الرتبة حتىٰ في هٰذا الباب، ولهٰذا الحديث في بعض رواياته له تتمة قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم»، ولاشك أن من يكون في قلوب الناس أمنٌ من جهته: يأتمنون علىٰ أموالهم، يأتمنون علىٰ دمائهم، لاشك أن هٰذه رتبة أعلىٰ من رتبة شخص المسلمون قد سلموا من لسانه ويده، يعني أنه لا يطالهم منه شر ولا ينالهم منه أذىٰ.

ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس من لسانه ويده، وفسر المؤمن بأمر باطن، وهو أنهم يأمنونه علىٰ دمائهم وأموالهم، ولاشك أنَّ الصفة الثانية وهي أنهم يأمنونه علىٰ دمائهم وأموالهم أعلىٰ من الصفة الأولىٰ.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٥/ ١٦٥).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٧ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ السِّمْسَارُ الْحُرْفِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَّادُ، أَخْبَرَنَا هِلَالُ بْنُ الْعَلَاءِ، قَالَ: حَدثنا عمرو بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ أَعْيَنَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُقَيْلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

ثم أورد رَحِمَهُ اللهُ هٰذا الحديث (عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ») وهٰذا هو موضع الشاهد من سياق هٰذا الحديث في هٰذه الترجمة قال: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ» والمراد بـ(فُقْمَيْهِ) أي لحييه ولهٰذا جاء في بعض الروايات من حفظ ما بين لحييه أي حفظ فمه ولسانه من التكلم بالحرام وقول الحرام وصانه عن ذلك كله فإنَّ ذلك من موجبات دخول الجنة.

والمراد (وَرِجْلَيْهِ) أي حفظ فرجه من نحو الزنا واللواط والسِّحاق وغير ذلك في قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾[المؤمنون].

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٨- أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ رَامِشٍ؛ قَدِمَ عَلَيْنَا الْحَجَّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَيْبَانَ الْمُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ اللَّيْثُ بن سعد: مرُّوا بِرَاهِبٍ فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، ثُمَّ عَادُوا فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أُرْسِلَهُ فَيَأْكُلَنِي.

ثم أورد هٰذا الخبر عن الليث بن سعد في ذكر خبر الراهب.

والمراد بالرهبان عباد النصارىٰ، (مروا بِرَاهِبٍ) متعبد منقطع بالعبادة في صومعته (فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ) يعني لم يكن له رغبة في التكلم وفي الحديث، لما ألحُّوا عليه، (فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أُرْسِلَهُ) أن أتركه يتكلم (فَيَأْكُلَنِي) أي يهلكني وأتحمل تباعات عظيمة فيما أقوله من كلامي.

ومثل هٰذه الأخبار يوردها أهل العلم علىٰ سبيل الاستئناس لا علىٰ سبيل الاعتماد، العمدة الأحاديث التي تقدمت، وكلام الله وكلام رسوله؛ لٰكِن مثل هٰذه الحكايات والأخبار يوردونها علىٰ سبيل الاستئناس بها.

ومما رُوي في هٰذا المعنىٰ عن الفضيل بن عياض قال: قيل لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مالك لا تتكلم؟ قال: إن لساني سبع أتخوف إن تركته يأكلني.

وقيل لبعض العلماء: إنك تطيل الصمت ، فقال: إني رأيت لساني سبعا عقورًا، أخاف أن أخلي عنه فيعقرني.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٩ - وَأَنْشَدُوْنَا فِي مَعْنَاهُ:

احْفَـظْ لِسَـانَكَ أَيُّهَـا الإِنْسَـانُ ... لَا يَقْتُلَنَّـكَ إِنَّـهُ ثُعْبَـانُ
كَـمْ فِـي الْمَقَـابِرِ مِـنْ قَتِيـلِ لِسَـانُهُ ... كَانَـتْ تَهَـابُ لِقَـاءَهُ الْفُرْسَـانُ

أورد هٰذا البيت في معنىٰ ما تقدَّم؛ أي أن اللسان سبع، ويخشىٰ علىٰ صاحبه إن أرسله وأطلق له العنان أن يُهلكه، أنشدوا في هٰذا المعنىٰ: (احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ) أي صنه من التكلم فيما لا يعنيك، من التكلم فيما حرم الله ﷻ عليك (لَا يَقْتُلَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ) أي أنك إن أطلقت له العنان يتكلم بدون ضابطٍ فإنه يقتلك ويصيبك بمقتل ويهلكك، فاحذر ذلك أشد الحذر.

ثم بيَّن أن في المقابر خلقٌ كثيرون، هم من قتيل اللسان؛ لأنهم لم يصونوا ألسنتهم في حياتهم الدنيا، وهم أيام حياتهم لهم هيبة ولهم سطوة ولهم مكانة عند الناس؛ لكنهم بعد أن غادروا هٰذه الحياة أصبحوا قتيلي ألسنتهم؛ لأنهم كانوا يتكلمون بألسنتهم بلا ضابط ودون رعاية ولا صيانة لألسنتهم.

١٠ - أَنْشَدَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُظَفَّرِ بْنِ بَدْرٍ الشَّافِعِيُّ الْبَنْدَنِيجِيُّ بِهَا، أَنْشَدَنَا أَبُو النُّعْمَان عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ أَحْمَدَ النَّجْلِيُّ، أَنْشَدَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بِسْطَامٍ لِأَبِي نُوَاسٍ:

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِلرَّام ... وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَام
مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ ... لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَام
رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بِالقَوْ ... لِ مَغَالِيقُ الْحِمَام
رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجَا ... لَ قِيَامٍ وَفِئَام
إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْ ... جَمَ فَاهُ بِلِجَام

---

أورد هٰذه الأبيات لأبي نوّاس وله ديوان مطبوع، وله أبيات وعظية ومنها هٰذه الأبيات، يقول فيها :

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِلرَّام ... وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَام

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾[الفرقان]،

وقد أمر على السفيه يسبني ... وأمر ثمة وأقول لا يعنيني

(خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَام) إن مررت بإنسان سفيه أو سليط اللِّسان أو جريء عن التلفظ بالكلام البذيء لا تقف عنده، ولا تجاريه في سفهه، وإنَّما امض بسلام، امض بكرم، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[الفرقان:٦٣]، فيقول:

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِلرَّام ... وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَام

يقول:

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ ... لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَام

(مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ) الصَّمت عن السوء وعن الشر وعن البذاء ونحو ذلك (خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَام) أي الكلام بالشر، هٰذا هو الداء أما الكلام في الخير هو دواء وليس بداء ، (خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَام) أي سيئ الكلام فصمت الإنسان عن الشر خير من تكلمه به، أن يموت على ذلك خير له أن يموت وقد تكلم بكلمات هي شرور وآفات فيتحمل تبعتها وتكون عليه حسرة وندامة.

رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بِالقَوْ ... لِ مَغَالِيقُ الْحِمَام

وهٰذا فيه تبيان لخطورة الكلام، وأنه ربَّما نشأت مقاتل وحروب طاحنة بسبب الكلام، والتكلُّم فالكلام أمره خطير ليس بالهيِّن ولا بالسهل.

رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجَا ... لَ قِيَامٍ وَفِئَام

وفي ديوانه (نيام وقيام) أي كم من أناس كانت آجالهم بسبب الكلام، تكلم بكلمة فكان بها موته ومثلا الاعتداء عليه أو قتله أو قتل آخرين معه بسبب كلمة، كم من الشرور العظيمة التي تنشَب في المجتمعات وعلى مستوى الفراد والجماعات بسبب الكلام.

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْ ... جَمَ فَاهُ بِلِجَام

والمراد باللجام المعنوي لا الحسي، بمعني بأن يمنع نفسه عن التكلم في ما فيه مضرة عليه وفيما هو إثم وباطل.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١١ - وَأَنْشَدَنَا أَيْضًا

أَنْـتَ مِـنَ الصَّـمْتِ آمِـنُ الزَّلَـلِ وَمِـنْ كَثِيـرِ الْكَـلَامِ فِـي وَجَـلِ
لَا تَقُـلِ الْقَـوْلَ ثُـمَّ تُتْبِعُـهُ يَـا لَيْـتَ مَـا كُنْـتُ قُلْـتُ لَـمْ أَقُـلِ

هٰذا أيضًا من جميل وعظه ونُصحه في أبياته يقول: (أَنْتَ مِنَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ) إذا لم تتكلَّم قد أمنت من الوقوع في الزَّلل، (وَمِنْ كَثِيرِ الْكَلَامِ فِي وَجَلِ) إذا كنتَ تتكلَّم تصبح في وجل أنك تتحمَّل تبعات كلام لم تنتبه له مع كثرة كلامك إذا كُنت كثير الكلام فأنت في وجل، أما مع الصمت فأنت آمن من الزَّلل.

ثم ينصح هٰذه النَّصيحة يقول: امنع نفسك عن الكلام خير من أن تتكلم ثم بعد ما تنتهي من الكلام تقول: ليتني ما تكلمت، وتأخذ مع نفسك في تأسف وفي ندامة، وفي اعتذار للآخرين،

لَا تَقُـلِ الْقَـوْلَ ثُـمَّ تُتْبِعُـهُ يَـا لَيْـتَ مَـا كُنْـتُ قُلْـتُ لَـمْ أَقُـلِ

كثير هٰذه تأتي علىٰ ألسنة الناس، بينه وبين نفسه أحيانا، وأحيانا مع الآخرين؛ يتصل ويرسل، وأنا أعتذر ما كنت أقصد، وليتني ما تكلمتُ، ليتني ما حضرت المجلس الفلاني صدر مني كلام ما أحببت أن أقوله.

من الخير للإنسان أن لا يتكلَّم إلا بكلام يطمئنُّ إليه، يرتاح يأنس به، يسعد به، أما أنه يطلق للسانه العنان يتكلم ويتكلم بما شاءن هٰذا مهلكة له ومضرة في دنياه وأخراه.

ومن أجمل ما ورد في ذلك: إياك ما يعتذر منه. معنىٰ ذلك امنع نفسك من الكلام حتىٰ لا تحتاج أصلا إلىٰ الاعتذار والتأسف للزلل الذي كان في كلامك.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١٢ - وَأَنْشَدَنَا أَيْضًا:

اسْتُرِ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ ... إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ
وَاجْعَلِ الصَّمْتِ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا ... رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ

---

وأيضا من جميل نُصحه قوله: (اسْتُرِ الْعِيَّ) والعي الجهل (مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ) يرتاح الصَّامت الذي لا يتكلَّم إلا بكلام متَّزن، وكلام منضبط، ومن يطيل الصَّمت يؤتىٰ الحكمة؛ لأن الكلام الذي يقوله يخرج منه باتزان واعتدال وانضباط وتروِّي وتفكر فيه، فيقول: (وَاجْعَلِ الصَّمْتِ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا) إذا لم يكن عندك جوابا (رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ) ما عندك معرفة الصَّمت اجعله جوابا للسؤال الذي تسأل عنه.

أما أنَّ الإنسان يُسأل وليس عنده علم ولا بيِّنة ثم يتكلم، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء].

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١٣ - وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ، وإِنَّمَا جُعِلَ لِلْإِنسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ مَا يَسْمَعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ عَلَىٰ رَدِّ مَا لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَىٰ رَدِّ مَا قَدْ قَالَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ) واضح المثل؟ عندما يكون الإنسان في يده سهم ويرمي به، ثم يجد أنَّه مثلا ولم يقصد قد اتجه هٰذا السهم إلىٰ إنسان، ولا يريد أن يقتله، هل يستطيع أن يرد السهم وفي طريقه للإنسان! !

الكلمة مثل السهم إذا خرجت من لسانك فهي مثل السهم لا تستطيع أن تسترجعها انتهىٰ.

كنت تكملها قبل أن تخرج ولن بعد أن خرجت انطلقت من لسانك فمثلها كمثل السهم إذا انطلق لا يمكن لصاحبه لا يمكن أن يرده.

هٰذا الكلام حكمة: (مَثَلُ الْكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ).

(وإِنَّمَا جُعِلَ لِلْإِنسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ مَا يَسْمَعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ) قال: (وَهُوَ عَلَىٰ رَدِّ مَا لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَىٰ رَدِّ مَا قَدْ قَالَ) وهٰذا واضح، الشيء الذي لم تقله أنت في عافية وفسحة، وقادر علىٰ رده، لٰكن إذا ذهب الكلام يعسُر ردُّه؛ لأنه تحملت من ورائه تبعات وتبعات.

هٰذا الكلام الذي أضافه إلىٰ بعض الحكماء موجود بنحوه في كتاب «روضة العقلاء» لأبي حاتم ابن حبان البُسْتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، و«روضة العقلاء» علىٰ اسمه روضة مليئة بالفوائد الثمينة، جعله في خمسين بابا، كل باب منها روضة مستقلة للعقلاء، فيه من الحكم البديعة والفوائد الثمينة الشيء الكثير.

يقول أبو حاتم في «روضة العقلاء»[1]: **الواجب علىٰ العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول. لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو علىٰ رد ما لم يقل أقدر منه علىٰ رد ما قال. والكلمة إذا تكلَّم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، والعجب ممن يتكلم بالكلمة إن هي رُفعت ربما ضرته، وإن لم ترفع لم تضره، كيف لا يصمت، ورب كلمة سلبت نعمة**. انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) (ص٤٥).

موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١٤ - وَأَنْشَدَنَا أَيْضًا:

يَمُـوتُ الْفَتَـىٰ مِـنْ عَثْـرَةٍ بِلِسَـانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْرَتُـهُ مِـنْ فِيـهِ تُـذْهِبُ نَفْسَـهُ وَعَثْرَتُـهُ بِالرِّجْـلِ تَبْـرَىٰ عَلَـىٰ مَهْـلِ

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذين البيتين في خطورة عثرة اللِّسان، وأنها أخطر من عثرة القدم.

قال: (يَمُوتُ الْفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ) يعني ربما أنَّ كلمة يقولها تكون سببا لهلاكه وموته (وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ).

(فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ) أي من لسانه من فمه (تُذْهِبُ نَفْسَهُ وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَىٰ عَلَىٰ مَهْلٍ) وانكسرت رجله أو أصيب بنوع من الإصابة فإنها تبرأ علىٰ مهل، أما عثرة اللسان فإنها مُهلكة لصاحبها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجواب الكافي»[1]: (**ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرِّجْل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ**: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾[الفرقان].)

فالمشي الهون فيه سلامة من عثرة الرجل وإذا خاطبهم الجاهلون فيه السلامة من عثرة اللسان، فجمع هنا في هٰذه الآية في وصف عباد الرَّحمٰن السلامة من العثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان .

تتمة كلامه قال: (**فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم**).

---

(١) (ص١٦٢).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

## بَابُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ الْبُيُوتِ

١٥ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الرَّزَّازُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ زُهَيْرٍ الضَّبِّيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زَحْرٍ عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ».

---

ثم أورد هٰذا الحديث حديث (أَبِي أُمَامَةَ) الباهلي رضي الله عنه (قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟) هٰذا سؤال عظيم جدا، وكان في مقدمة أولويات الصحابة رضي الله عنهم.

وثمت في الأحاديث أحاديث كثيرة فيها هٰذا السؤال: ما النجاة؟ ما نجاة الأمر؟

**ووقع في نفسي الآن لو أن أحدا طلبة العلم الواردة في هٰذا المعنىٰ: ما هي نجاة الأمر؟ سألت رسول الله عن النجاة؟ أحاديث عدة لو جمعت في موضع واحد**، واستخلصت هٰذه المعاني التي جاءت عن النبي ﷺ في بيان نجاة الأمر (مَا النَّجَاةُ؟).

هٰذا يدل علىٰ شدة حرص الصحابة حرصهم علىٰ النجاة، يريدون لأنفسهم السلامة، يريد الواحد منهم أن ينجو أن يسلم، أن لا يتورط، لا بأمر يتعلق بلسانه، ولا بأمر يتعلق بيده، لا أن ينال أحدا منه أي مظلمة، يريد النجاة لنفسه فيقول عقبة بن عامر: (مَا النَّجَاةُ؟) ما الذي تكون به نجاتي يوم ألقىٰ الله ﷻ.

سبحان الله إذا كان هٰذا المطلب قائم في النفس، نفس الإنسان تريد النجاة، تخاف من لقاء الله ﷻ، ويريد ما يكون به نجاته في ذلك اليوم، تبدأ مثل هٰذه الأسئلة، ويبدأ أيضا الحرص العظيم علىٰ ما تكون به السلامة، بخلاف من لا يمشي وهو لا يضرب حسابا لأمر النجاة، ولا يفكر في أمر النجاة يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

قال: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ» وهٰذا نظير في ما جاء في حديث معاذ المتقدم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله**».

« امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ» أي ليكن أمر لسانك وما يتكلم به لسانك أمرٌ تملكه، تضبطه، تصونه، تحرص علىٰ أن لا يخرج منك أي كلام فيه مضرة عليك وهلكة لك.

« امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ » أي جاهد نفسك علىٰ صيانة اللسان وحفظه ومنعه من كل ما حرم الله ﷻ وما يسخطه جل في علاه.

هٰذا الأمر الأول من أسباب النجاة.

الأمر الثاني: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» أي لزم البيت ولا يكون خروجك منه إلا لما فيه مصلحة دينية أو دنيوية، وإذا خرجت قل الدعاء المأثور: «اللّٰهمَّ أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي» هٰذا كل مرة تخرج من بيتك هٰذه الأشياء كلها متوقعة، ويخشىٰ عليك

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

منها، إما أن لا يحصُل لك سلامة من الناس، أو لا يحصل للناس سلامة منك، هٰذه كلها يخشىٰ علىٰ الناس منك أن يقع منك للناس شيئا تجاههم، وأيضا يخشىٰ عليك من الناس.

إذن «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» بمعنىٰ أن الإنسان ليسعك بيتك ولا يكون خروجه، ليس هٰذا امتناع من الخروج؛ بل من الخروج ما هو واجب: الخروج إلىٰ الصلوات، الخروج إلىٰ طلب الأرزاق ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾[الملك:١٥].

ليس المراد «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» أن العبد يلزم بيته ولا يخرج منه، ليس هٰذا المراد؛ لٰكِن يلازم الإنسان البيت ولا يكون خروجه من بيته إلا فيما تحقَّق منفعته ومصلحته الدينية والدنيوية، ويخرج مستعيذا بالله «اللّٰهمَّ إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل» كما صحَّ في ذلكم الحديث عن رسول الله ﷺ.

قال: «وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ» أي ليكن عندك ألم علىٰ ما كان منك أخطاء وتقصير في جنب الله وندم وتوبة إلىٰ الله ﷻ.

فهٰذه الأمور الثلاثة جمعت نجاة الأمر، «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ».

جاء في «شعب الإيمان» للبيهقي عن عروة قال: كان عروة بن مجاهد قال: إذا حدث بهذا الحديث ألا فرب من لا يملك لسانه ولا يبكي علىٰ خطيئته ولا يسعه بيته.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١٦ - أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَاذَانَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّمَّاكِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَيَّاطُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ يَزِيدَ الصَّائِغُ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: عَلَيْكُمْ بِالصَّوَامِعِ. قُلْنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: الْبُيُوتُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ.

١٧ - وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكَلَامِ هَذَا زَمَانَ السُّكُوتِ وَلُزُومَ الْبُيُوتِ.

١٨ - وَقَالَ أَيْضًا: لِيَكُنْ شُغْلُكَ فِي نَفْسِكَ وَلَا يَكُنْ شُغْلُكَ فِي غَيْرِكَ، فَمَنْ كَانَ شُغْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ.

---

أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الأثر عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ.

والفضيل بن عياض من أجلة علماء التابعين، ومن فقهاء المسلمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

يقول: (يَقُولُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: عَلَيْكُمْ بِالصَّوَامِعِ. قُلْنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: الْبُيُوتُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ.)

تقدم معنا في حديث أبي أمامة أن عقبة بن عامر للرسول ﷺ ما النجاة؟ قال: املك عليك لسانك وليسعك بيتك. ومعنىٰ أن لزوم البيوت فيها نجاة بمعنىٰ أن يلزم البيت ولا يخرج لمصلحة متحققة دينية أو دنيوية، أما إذا كان يعلم من نفسه خروجه لإثم أو خطيئة أو حرام أو يُسخط الله ﷻ فليسعه بيته ولا يكن خروجه من بيته إلا لمصلحة دينية أو دنيوية. وهٰذا هو المراد بلزوم البيوت. قال: (فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ).

(وَكَانَ يَقُولُ) أي الفضيل (لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكَلَامِ هَذَا زَمَانَ السُّكُوتِ وَلُزُومَ الْبُيُوتِ) ولعل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من هٰذا الأثر أخذ عنوان الرسالة وترجمة الباب الثاني منها.

(السُّكُوت) المراد به عن الشر والحرام والأمر المشتبه عن الإنسان.

(وَلُزُومَ الْبُيُوتِ) اي عدم الحروج منها إلا لما فيه خير، والخروج من البيوت تارة كون واجبا، وتارة يكون مستحبا وتارة يكون مباحا، وقد يكون حراما، وقد يكون مكروها، بحسب الأمر الذي قصد الإنسان الخروج من بيته لأجله.

قال: (وَقَالَ أَيْضًا: لِيَكُنْ شُغْلُكَ فِي نَفْسِكَ، وَلَا يَكُنْ شُغْلُكَ فِي غَيْرِكَ) أي اشتغل بعيوب نفسك وتفقد أخطاءك وتأمل في معاصيك بتفريطك في جنب الله، ولا يكن شغلك في الآخرين.

**وكم من إنسان قد شغل نفسه بآخرين، وربما كانوا عند الله خيرا منه.**

فينبغي للإنسان أن يشغل نفسه بعيوب بنفسه عن عيوب الآخرين، ولهٰذا بعض الناس قد يكون مفرط في بعض الواجبات بعض فرائض الدين، وتجد أنه ينال من الآخرين طعنا ولمزا وغير ذلك وهو مفرط في واجبات وفي فرائض.

ولهٰذا ينقل عن أحد السلف أنه قيل له: ما نراك تتكلم في أحد، لستُ راض عن نفسي. أي شغله أمر نفسه وشأن نفسه وتفقُّد حاله عن غيره.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

(فَمَنْ كَانَ شُغْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ) علىٰ كل حال كل هٰذا نهي عن الكلام فيما فيه إثم من غيبة ونميمة أو سخرية أو استهزاء أو نحو ذلك، ولا يدخل في ذلك ما كان من الكلام نصحا لدين الله تبارك وتعالىٰ ممن هو أهل للنصيحة أمرا المعروف أو نهيا عن منكر أو نحذير من باطل أو نحو ذلك.

وهٰذا الاحتراز الذي ينبه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ والصيانة للسان قلَّ من يسلم منه إلا من وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام قريب من كلامه الذي سبق يقول فيه: (**ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والإحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتىٰ ترىٰ الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سَخط الله لا يلقي لها بالًا، يَزِلُّ بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب.**

**وكم ترىٰ من رجل متورِّع عن الفواحش، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول!**

**وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلىٰ ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله** ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان**») هٰذا كلام كثير أو كلمة واحدة؟ «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان». كلمة واحدة ليس كلاما كثيرا ولا أيام ولا شهور وهو يتكلم وإنما كلمة واحدة، («**والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله** عَزَّوَجَلَّ: **من ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أنِّي لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له، وأحبطتُ عملَك**»)، قال ابن القيم: (**فهٰذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده، أحبطت هٰذه الكلمةُ الواحدة عملَه كله، وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.**) [1]

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٥٩).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

١٩ - أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُعَدَّلُ أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ إِسْحَاقُ بْنُ أَحْمَدَ الْكَاذِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حدثنا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْأَغَرِّ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ حَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا إِلَىٰ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعِيوبِ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْسُنُ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ السَّاعَاتِ الْأُخَرِ، وَحَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ مُقْبِلًا عَلَىٰ شَانِهِ.

وَحَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُرَىٰ ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ زَادٍ لِمِعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

أورد هٰذا الأثر رَحِمَهُ اللهُ عن وهب بن منبه قال: (قَالَ: فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ) ومثل هٰذا يروىٰ عند أهل العلم للاعتضاد لا للاعتماد، ما كان ينقل من نحو ذلك من كلمات ومواعظ ومعاني مستقيمة فإنها تذكر من أهل العلم وتروىٰ للاعتضاد لا للاعتماد.

قال : (فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ حَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا إِلَىٰ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعِيوبِ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْسُنُ فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ السَّاعَاتِ الْأُخَرِ) والمراد بالساعة ليس الساعة تحديدا، وإنما أوقات، يقسم بأن يكون أوقات للمحاسبة، وأوقات للذكر والعبادة، وأوقات يجلس مع إخوانه ورفقائه ومن يحب، ووقت أو أوقات في الشهوات المباحة التي أحلها الله، ولا يكون فيها ما يسخطه سبحانه. فإن هٰذا الإجمام للنفس في الشهوة المباحة عونا له علىٰ الساعات الأخر.

(وَحَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ مُقْبِلًا عَلَىٰ شَانِهِ) وهٰذه أيضا معاني واضحة؛ معرفة الإنسان بزمانه وما قد يكون فيه من شرور ومن فتن وما يكون فيه من أخطار إلىٰ غير ذلك، وأن يصون لسانه عما يسخط الله (مُقْبِلًا عَلَىٰ شَانِهِ) أي شأنه الذي ينفعه في دينه ودنياه.

(وَحَقٌّ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُرَىٰ ظَاعِنًا) أي مرتحلا (إِلَّا فِي ثَلَاثٍ زَادٍ لِمِعَادٍ) أي يرتحل ليتزود ما ينفعه يوم لقاء الله ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]، (أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ) أي طلب للعيش والرِّزق (أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ) هٰذه كلها معاني صحيحة.

ونكتفي بهذا القدر، ونستكمل هٰذه الرسالة بإذن الله ﷻ في صباح الغد.

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علما، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، سبحانك الله وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللّٰهمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

## المجلس الثاني

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فنواصل القراءة في هٰذا الكتاب النافع «الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت» لابن البناء رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

٢٠ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَوَارِسِ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْفَوَارِسِ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ الصَّوَّافِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ الْحِمْصِيُّ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنِي قَيْسُ بْنُ عَمْرٍو السَّكُونِيُّ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاذًا يَقُولُ: إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتْنَةً، وَلَنْ يَزْدَادَ الْأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَنْ تَرَوْا مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَّا غِلْظَةً، وَلَنْ تَرَوْا أَمْرًا يَهُولُكُمْ وَيَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا حَقَرَهُ بَعْدَه مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ رَضِّنَا، مَرَّتَيْنِ.

---

أورد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الأثر عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (يَقُولُ: إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتْنَةً) وذلك أنَّ الدنيا دار ابتلاء ودار امتحان، قد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]، فالدنيا دار ابتلاء ولهٰذا يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتْنَةً).

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَلَنْ يَزْدَادَ الْأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً) وذلك أنَّ أمور أهل الإيمان من كمالٍ إلىٰ نقص، ولا يأتي علىٰ الناس زمان إلا الذي بعده دونه وأقل منه، قال: (وَلَنْ تَرَوْا مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَّا غِلْظَةً) وكيفما تكونوا يولىٰ عليكم، كلما نقص الناس في ديانتهم وفي عبادتهم وفي صدقهم مع الله يكون الحال كذلك فيمن يولىٰ عليهم، كيفما تكونوا يولىٰ عليكم، (وَلَنْ تَرَوْا أَمْرًا يَهُولُكُمْ وَيَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا حَقَرَهُ بَعْدَه مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ) قد يرىٰ الإنسان أمرا مهولا وأمرا يراه شديدا عظيما ثم يأتي إلىٰ الزمان الذي بعده أو يمتد به العمر فيرىٰ أمورا أشد مما كان يراه في شبابه بمعنىٰ أن الأمور في تغيرها بهذا الحال.

هٰذا كله قاله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنبيها للمؤمن إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه في الابتلاء من مجاهدة للنفس علىٰ الثبات علىٰ الحق، وصدق الالتجاء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والرضا بالله وعن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وألا ينحرف في خضمّ الفتن التي تداهمه، وتهلك من تهلك من الناس مستعيذًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ولهٰذا (قَالَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ رَضِّنَا، مَرَّتَيْنِ) وهٰذا فيه أن أهم ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في هٰذه الأحوال الرضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرضا عنه عَزَّوَجَلَّ.

وهما أمران مهمان لغاية -الرضا بالله والرضا عن الله-، وفي الدعاء وفي الحديث المأثور عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ضاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا».

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

والرضا عن الله ورد في مثل قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[المائدة:١١٩].

ومتعلق الرضا بالله أسماؤه ﷻ وصفاته، ومتعلق الرضا عنه ثوابه جل وعلا وجزاؤه.

فمثل هٰذه الأمور ينبغي أن يروِّض المسلم فيها نفسه علىٰ الاقبال علىٰ الله، وكل ما اشتدت الفتن ازداد إقبالا علىٰ الله ﷻ، وقد قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «عبادة في الهرج كهجرة إلي»، وفي الحديث الآخر وهو في الصحيح قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «سبحان الله ماذا أنزل الله هٰذه الليلة من الفتن، من يوقض صواحب الحجرات يصلين» وهٰذا فيه أن المسلم ينبغي عليه في الفتن أن يقبل علىٰ العبادة علىٰ الذكر، علىٰ الاستكانة، علىٰ الخضوع لله ﷻ، بينما كثير من الناس تشغلهم الفتن عن ذكر الله؛ بل إن كثير من الناس تشغلهم الفتن عن طاعة الله، كم من أناس شغلتهم الفتن عن إقامة الصلاة في أوقاتها، كم من أناس أوقعتهم الفتن في منكرات ومحرمات، وأمور تسخط الله ﷻ.

فالفتن جارفة ومهلكة، ولا يسلم منها إلا من سلمه الله ﷻ ووقاه.

وقول معاذ رضي الله عنه في هٰذا الأثر: (إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتْنَةً) جاء في «شعب الإيمان» للبيهقي عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : لا يأتي عليكم عام إلا والذي بعده شر منه، قالوا: فإنه يأتي علينا العام يخصب -يكون خصبا- والعام لا نخصب فيه -يعني مرة ومرة- قال: إني والله لا أعني خصبكم ولا جدبكم، ولٰكِن ذهاب العلم أو العلماء، قد كان قبلكم عمر فأروني العام مثله؟

يمكن أن يقال في زماننا هٰذا قد ابن باز رحمه الله فأرونا مثله؟

لٰكِن مع ذلك الخير باق، يعني مع ذكرنا لهٰذا أيضا نذكر النصوص التي تبعث في العبد الإقبال والطمأنينة، وأن الخير له أهله وهو باق كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم إلىٰ قيام الساعة»، الحديث الآخر «لا يزال يغرس لهٰذا الدين غرسا» فالشاهد أن الخير باق، وقراءة مثل هٰذه النصوص ليست لتيئيس الإنسان وتقنيطه؛ بل وليقبل علىٰ الله ﷻ أن يكون من أهل الخير، وإن كانوا قلة فيكون من هؤلاء، قد سمع من بعض السلف أظنه من الصحابة، رجلا يدعو يقول: (اللّٰهمَّ اجعلني من القليل)؛ لأن الله قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[سبأ] يعني استحضر هٰذا الرجل أن أهل الخير مقارنة بأهل الأرض قلة، قال: اللهم اجعلني من القليل. قال: يا هٰذا عليك من الدعاء ما يعرف.

وهٰذا فيه تنبيه إلىٰ أن الإنسان أيضا لا يخترع أدعية، وإنما يحرص علىٰ الأدعية المعروفة والمأثورة التي جمعت غاية المطالب العلية وكمال المقاصد النافعة مع السلامة والعصمة من الخطأ.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢١ - وَأَنْشَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ:

عَجَبًا لِلزَّمَانِ فِي حَالَتَيْهِ ... وَلِأَمْرٍ دُفِعْتُ مِنْهُ إِلَيْهِ

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا ... صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

أورد هذين البيتين قال : (وَأَنْشَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ).

قال: (عَجَبًا لِلزَّمَانِ فِي حَالَتَيْهِ) المراد بحالتيه:

الحالة الأولىٰ التي هي حال جيدة.

والحال الثانية هي دون ذلك.

«ليأتي علىٰ الناس زمان إلا الذي بعده شر منه» فحال جيدة وحال دون ذلك، هٰذا هو حال الزمان.

(وَلِأَمْرٍ دُفِعْتُ مِنْهُ إِلَيْهِ) من حال إلىٰ حال.

(رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ) يكون من أهل تلك الحال الجيدة، ويبكي منه لما رأىٰ فيه من أشياء مؤلمة، قال: (فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ) لأنه لا يأتي زمان علىٰ الناس إلا والذي بعده شر منه.

وقتنا هٰذا كبار السن كانوا في أيام في حياتهم يبكون من أشياء تؤلمهم يعني الصالحين منهم، وفي زماننا هٰذا هم أنفسهم يبكون علىٰ ذلك الزمان لما يرون من شدة، حتىٰ أن بعضهم يحدث يقول: انفتح علىٰ أبنائنا من أبواب الشر ما كنا نعرفها من خلال الأجهزة والوسائل الحديثة والأمور التي تلوث الأفكار وتغير.

فهٰذه التقلبات والأحوال أمور قدرها الله ﷻ كونا وقدرا؛ لٰكِن المؤمن يدافع قدر الله بقدر الله، بأن يلجأ إلىٰ الله ويصدق مع الله ويستعين بالله، والمؤمن الصادق ينجيه الله مهما كانت الفتن، إذا صدق مع الله ﷻ وحرص علىٰ ركوب سفينة النجاة وهي الهدي المبارك كما قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: السنة سفينة النجاة من ركبها نجا ومن تركها غرق وهلك.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٢ - وَأَنْشَدَ أَيْضا بعض أهل الْعلم مَعْنَاهُ:

إِذَا مَـا الـدَّهْرُ أَوْرَثَنِـي انْتِقَاصًـا حَنَـوْتُ لَـهُ غِمَاصًـا لَا انْتِكَاصًـا
وَقُلْـتُ لَـهُ نَعِمْنَـا فِيـكَ حِينًـا وَهَـذَا الْفِعْـلُ مِنْـكَ لَنَـا قِصَاصًـا
فَطَـوْرًا شَـاكِرًا مَـا كَـانَ مِنْـهُ وَطَـوْرًا صَـابِرًا أَرْجُـو الْخَلَاصَـا

هٰذه الأبيات أيضا فيها تقلبات الزمان، والمعنىٰ الذي يشار إليه في هٰذه الأبيات يظهر -والله أعلم- يتعلق بحال الإنسان من حيث الشِّدّة والرخاء، علىٰ خلاف الذي تقدم فيما قبله.

فمن حيث الشدة والرخاء قد يكون الإنسان في حال من الأحوال في زمان فيه رخاء ونعمة، ثم يتحول ذلك إلىٰ انتقاص، قد يكون في قوة في بدنه وفي صحة ثم يتحول إلىٰ انتقاص وضعف ويقول:

إِذَا مَـا الـدَّهْرُ أَوْرَثَنِـي انْتِقَاصًـا حَنَـوْتُ لَـهُ غِمَاصًـا لَا انْتِكَاصًـا

أي أنه يلقىٰ هٰذه الشدائد التي تلقاه أو تمر به بأنها لا تُثنيه، لكن ينحني بحيث أنها تمر وتعبر لكنه لا تثنيه، لا تسبب له انتكاصا.

وقد جاء في الحديث أن (مثل المؤمن مثل خامة الزرع) وخامة الزرع كما هو معلوم إذا هبت الرياح تميل، وإذا توقفت رجعت إلىٰ أصلها، لكن الرياح لا تكسرها، فمع الرياح الشديدة تميل خامة الزرع، فهٰذا مثل ضربه الرسول ﷺ للحديث مع الشدة وتقلب الأحوال،

(وَقُلْـتُ لَـهُ نَعِمْنَـا فِيـكَ حِينًـا وَهَـذَا الْفِعْـلُ مِنْـكَ لَنَـا قِصَاصًـا)

(وَقُلْتُ لَهُ نَعِمْنَا فِيكَ حِينًا) أي تمتعنا فيك بنعم متعددة (وَهَذَا الْفِعْلُ مِنْكَ لَنَا قِصَاصًا) أي قصاص لما كان منا من نعيم في وقت قبل ذلك

(فَطَـوْرًا شَـاكِرًا مَـا كَـانَ مِنْـهُ وَطَـوْرًا صَـابِرًا أَرْجُـو الْخَلَاصَـا)

وفيما يظهر لي والله أعلم في ثنايا البيت بعض المعاني غير المناسبة؛ من حيث مخاطبة الدهر بهذه الأمور وذكر الشكر والصبر.

فمثل هٰذه الأمور ومخاطبة الدهر بها، والدهر لا يملك، والدهر مقلب، وفي الحديث «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»

فهو أولا من جهة لا علاقة له بالمعنىٰ الذي في ما قبله.

ومن جهة أخرىٰ فيما يظهر لي لا يسلم بعض المعاني غير المناسبة.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٣ - وَاجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعُبَّادِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي زَمَنِهِ شَيْئًا.

فَأَنْشَأَ الأول يَقُولُ:

إِنْ دَامَ ذَا الدَّهْرُ لَمْ يُحْزَنْ عَلَىٰ أَحَدٍ ... مِمَّنْ يَمُوتُ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

وَأَنْشَأَ الثَّانِي يَقُولُ:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَذِّرُهُ ... فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ

وَأَنْشَأَ الثَّالِثُ يَقُولُ:

أَعْمَىٰ أَصَمُّ مِنَ الْأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ ... وَفِيهِ لِلنَّفْسِ تَصْوِيبٌ بِتَصْعِيدِ

وَأَنْشَأَ الرَّابِعُ يَقُولُ:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَنْجَاةً وَمُدَّخَلًا ... لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَوْ فِي قَعْرِ مَلْحُودِ

---

أورد هنا هٰذا الخبر عن اجتماع أربعة من العباد (فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي زَمَنِهِ شَيْئًا) المراد بقولهم: (لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي زَمَنِهِ) أي وصف زمنه من حيث الحال التي يراها ويشاهدها في زمنه ولاسيما مقارنة بالذي قبله.

فقال أحدهم: (إِنْ دَامَ ذَا الدَّهْرُ لَمْ يُحْزَنْ عَلَىٰ أَحَدٍ) يعني بقيت الأمور علىٰ ما هي عليه من اشتدادها لم يُحزن علىٰ أحد ممن يموت؛ لأن موته خلاص من هٰذه الشدائد، وسلامة وخلاص من هٰذه الفتن.

(وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ) لأن المولود ولد وهو يستقبل مثل هٰذه الأمور، وهٰذه الشدائد، وهٰذه الفتن.

ولٰكِن هٰذا كلام عبّاد وليس كلام علماء، وإلا فالمسلم يفرح بالمولود ويتّقي الله ﷻ فيه أي كانت الأحوال، ويجاهد النفس علىٰ تربيته وهو من النعم والهبات العظيمة كما قال الله ﷻ في أواخر سورة الشورىٰ قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ وهٰذه أحوال الناس من حيث الأولاد وعدم الأولاد أنهم علىٰ أربعة أقسام:

- قسم يمن الله عليه بالبنات دون البنين.
- وقسم يمن الله عليه بالبنين دون البنات.
- وقسم يمن عليه بالبنين والبنات. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ أي: يعطيهم بنين وبنات.
- ومنهم من يكون عقيما لا ينجب.

وهٰذه القسمة أيضا وجدت حتىٰ في الأنبياء:

منهم من أعطاه البنين دون البنات، مثل إبراهيم.

ومنهم من أعطاه البنات دون البنين، مثل لوط.

ومنهم من جمع له بين البنات والبنين، مثل نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

ومن لم يولد له، مثل عيسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

المولود هبة ولا ينبغي أن يابل الإنسان ذكرا أو أنثىٰ بعدم فرح أو حزن؛ لأن الذي أوجده تكفل برزقه، وإذا لجأ إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- واتقىٰ الله بهذا المولود سلمه الله ﷻ وحفظه.

قوله: (وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ) هٰذا غير صحيح، والله ﷻ تكفل بأرزاق من كان.

إن كان المقصود بالشدة هنا الشدة من حيث قلة ذات اليد والفقر الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[الإسراء:٣١]، فالله تكفل برزقهم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وعلىٰ كلٍّ هٰذا كما ذكرت هو كلام عباد وليس كلام علماء.

قال: (وَأَنْشَأَ الثَّانِي يَقُولُ: هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَذِّرُهُ) أي نحذِّر منه (فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ) ونعم جاء عن كعب وابن مسعود وعن معاذ وعن أبي مسعود وغيرهم بيان لأحوال الزمان والتغير الذي يحصل للناس، ومثل هٰذه الأمور وإن كانت وجاء الخبر بها واقعة قدرا قدّرها الله ﷻ إلا أن المؤمن مطالب باتِّقاء الله ﷻ في الفتن والاستعاذة به وصدق اللجوء إليه ولزوم عبادته وتحقيق تقواه جل وعلا؛ لأن هٰذه الدار دار ابتلاء وامتحان ه وتقدم معنا في أثر أبي مسعود البدري تقرير مثل هٰذا المعنىٰ.

قال: (وَأَنْشَأَ الثَّالِثُ يَقُولُ:

أَعْمَىٰ أَصَمُّ مِنَ الْأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ وَفِيهِ لِلنَّفْسِ تَصْوِيبٌ بِتَصْعِيدِ)

وهٰذا أيضا وصف للزمان واشتداد الأمور فيه.

ولعله يصف اشتداد الفتن، والفتن إذا اشتدت هٰذا وصفها؛ يقال: عن الفتنة: إنها عمياء صماء بكماء، ولهٰذا يقع في الفتن ويهلك أكثر الناس لأن هٰذا وصف الفتنة: عمياء بكماء صماء.

وأيضا لما قال للنفس (لِلنَّفْسِ تَصْوِيبٌ بِتَصْعِيدِ) أي أن النفس تتقلب ولا يضبط لها حال، ولا ينجو من الفتن إلا من نجاه الله ﷻ ووفقه بصدق إلتجائه إلىٰ الله ﷻ.

(وَأَنْشَأَ الرَّابِعُ يَقُولُ:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَنْجَاةً وَمُدَّخَلًا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَوْ فِي قَعْرِ مَلْحُودِ)

وهٰذا أيضًا يصفُ الشِّدّة شدة الأحوال في زمانه، وأن الإنسان يبحث لنفسه النجاة ويطلبها ولو كان في مكان ضيق يلزمه ويكون فيه بعيدًا عن الفتن، والخوض فيها، ولعل هٰذا هو المعنىٰ المراد والله أعلم.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٤ - وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الزَّمَانُ لَا عَيْبَ لَهُ وَلَا ذَمَّ لِأَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ يُصَرِّفُ أَقْدَارَهُ فِيهِ.

إيراد هٰذا الخبر عن بعض الحكماء هو من جميل صنع ابن البنا رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ؛ لأن فيما قبله ما هو منتقد كما سبق بيانه في عيب الزمان، فأورد هٰذا الأثر منبِّهًا علىٰ ذلك قال: (وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الزَّمَانُ لَا عَيْبَ لَهُ وَلَا ذَمَّ) فلا يتجه إليه بالعيب ولا بالذم؛ لأن الله يصرِّف أقداره فيه بمعنىٰ أن الزمان لا يملك شيئا فلا يعاب ولا يمدح ولا يذم؛ لأنه مقلَّب ولا يملك من أمر التقلُّب شيئا، إنما الأمر لله - هو الذي يقلب الدهر جل وعلا كيف يشاء، ولهٰذا لا يتجه للدهر بالحمد كما أنه أيضا لا يتجه إليه بالذم، وكان مرَّ معنا في الأبيات التي ذكر قول الناظم:

(فَطَوْرًا شَاكِرًا مَا كَانَ مِنْهُ وَطَوْرًا صَابِرًا أَرْجُو الْخَلَاصَا)

يعني هٰذا كله فيما يتعلق بمخاطبة الدهر، فالدهر لا يملك من الأمر شيئا فلا يُمدح علىٰ ما جعل الله فيه من خير، ولا يذم علىٰ ما جعل الله فيه من بلاء وفتنة.

قال: (لِأَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ يُصَرِّفُ أَقْدَارَهُ فِيهِ) وفي الحديث «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»، فهٰذه التقلبات في الليل والنهار، التقلبات في أحوال، هٰذه كلها أمور بقدر الله وقضائه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٥ - وَأَنْشَدَ:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَقَدْ نَهْجُو الزَّمَانَ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ هَجَانَا
دِيَانَتُنَا التَّخَادُعُ وَالتَّرَائِي ... فَنَحْنُ لَهُ نُخَادِعُ مَنْ يَرَانَا

---

وفي المعنىٰ نفسه أورد هٰذه الأبيات (نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبِ فِينَا) يعني كأن الإنسان عندما يعيب الزمان يُريد بذلك كأنه يخلي مسؤوليته، والزمان لا يملك شيئا؛ لٰكِن أنت عبد مسؤول أمام الله ﷻ ومطلوبٌ منك العبودية لله ﷻ كيفما كانت الحال إن كانت شدة لها عبودية، وإن كانت رخاء لها عبودية وإن كانت فتنة لها عبودية وأنت في دار امتحان بأنواع من الامتحانات كيف تعبد الله ﷻ في كل حال كيف تلجأ إلىٰ الله ﷻ، فكثير من الناس ينشغل بعيب الزمان عن عيب نفسه، والعيب فيه هو، والملامة عليه والمحاسبة عليه، فينبغي أن يعمل علىٰ صلاح نفسه كيف كان الزمان وينظر عبوديته المطلوبة منه في الحال التي هو عليها، والزمان الذي هو عليه فيحقق تلك العبودية صابرا محتسبا.

قال: (وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا) يعني أن العيب فينا نحن أهل الزمان لا الزمان نفسه.

و(وَقَدْ نَهْجُو الزَّمَانَ بِغَيْرِ جُرْمٍ)، (وقد) تستعمل تارة للتكثير، وتارة للتقليل، وتارة للتحقيق، وهنا استعمالها من النوع الثالث للتحقيق؛ لأن من يهجو الزمان هو في الحقيقة هجاه لغير جرم؛ لأن الزمان أمره بيد الله ﷻ ولا يملك شيئا في أمر التقلب والشدة والفتنة، الزمان مقلَّب.

(وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ هَجَانَا) وهٰذا في معنىٰ الذي قبله (وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا) لو نطق الزمان قال أن العيب تذمونا فيه هو عيبكم أنتم.

ثم يبين حال كثير من الناس: (دِيَانَتُنَا التَّخَادُعُ) أي يخدع بعضنا بعضا (وَالتَّرَائِي) أي كل يري من نفسه الآخر صلاحا بالأعمال والترائي بالدِّيانة فيه ما فيه الإنحلال والفساد؛ لكنه إن لقي الناس أخذ يريهم من نفسه صلاحا ومثلا أدبا ونحو ذلك، (فَنَحْنُ لَهُ نُخَادِعُ مَنْ يَرَانَا) (لَهُ)أي للزمان الذي نعيشه ونحياه (نُخَادِعُ مَنْ يَرَانَا) .

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٦ - وَأَنْشَدَ أَيْضًا:

أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ وَأَعْرَاضًا تُذَلُّ فَلَا تُصَانُ
يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

هذان البيتان عظيمان جدًّا، وفيهما معانٍ قوية ولا سيما الأول، يقول فيه الناظم: (أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ ) المراد بالحلل الثياب، يقول: (أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ )يعتني أصحابها بها نظافة وحبكا وترتيبا وصيانة من أن يصل لها شيئا من القذر أو الأذىٰ محافظة علىٰ نقائها، (وَأَعْرَاضًا تُذَلُّ فَلَا تُصَانُ) فيكون هٰذا الذي معتني بثيابه محافظ علها معتني بها غير مبال بأعراض الناس، يحافظ بثيابه ولا يبالي بأعراض الناس، يكون منه عناية بثيابه صيانة وحبكا، ولا يبالي بأعراض المسلمين وقيعة وهتكا.

وهٰذه مصيبة؛ أن تبلغ الحال أن يكون ثوبُه الذي عن قريب يبلىٰ، ويلقيه ويستبدله بآخر أهم عنده من عرض أخيه المسلم فيصون ثوبه ويعتني به ولا يبالي بأعراض المسلمين، فبلغ الأمر هٰذا المبلغ أن كان ثوبه الذي هو قطعة من القماش أهم من عرض أخيه، يعتني بثوبه عناية دقيقة ولا يبالي بعرض أخيه، يحرص أن لا دنس ثوبه ولا يبالي بأن يدنس عرض أخيه، فبلغ الأمر به هٰذا المبلغ أن هذا الثوب أولىٰ عنده من عرض أخيه.

(يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ) يعني كثير من الناس عندنا يلام علىٰ أخطائه يجعل اللوم علىٰ الزمان هٰذا هو الزمان وهٰذا الوقت هكذا وجدنا فيه، (وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

## بَابُ مَا يَجِبُ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنُ مِنْ طَلَبِ السَّلامَةِ وَلُزُومُ الْوَطَن

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (**بَابُ مَا يَجِبُ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنُ مِنْ طَلَبِ السَّلامَةِ وَلُزُومُ الْوَطَنِ**) هٰذا باب عقده رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لبيان ما يجب علىٰ المسلم عندما تظهر الفتن وتشرئب، وأنَّ الواجب عليه أن لا يستشرف لها؛ لأن من استشرف للفتن أهلكته ولم يحمد العاقبة ويندم في دنياه وأخراه.

فالسلامة في الفتن: ترك الفتن، وتجنب الفتن، والاستعاذة بالله ﷻ منها. ولهٰذا عند ظهور الفتن يحرص المسلم علىٰ طلب السَّلامة، ما معنىٰ طلب السلامة؟ يعني إذا هاجت الفتنة يحرص علىٰ أن لا يكون له يدٌ في هٰذه الفتنة، لا بانتهاك عِرض، ولا بوقوع في مثلا دم حرام أو قتل مسلم واعتداء علىٰ مال؛ «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم».

وفي الفتن -سبحان الله- ترخص الدماء وترخص الأعراض والأموال ويكثر الاعتداء في هٰذه الأشياء، وقد طلب رجل من ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اكتب لي بالعلم كله. حريص جدا فقال له ابن عمر: إن العلم كثير؛ ولٰكِن إن استطعت أن تكون خميص البطن من أموال المسلمين، خفيف الظهر من دمائهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازما لجماعتهم فافعل. ذكر ر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هٰذه الأمور الثلاثة، وهي جمعت المسلم جماع الخير، وهي التي ذكرها النبي ﷺ في قوله: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم».

وسبحان الله إذا اشتدت الفتن الدماء ترخص وتراق، ويريد المسلم دم المسلم.

وأيضا الأعراض ترخص ويعتدي المسلم علىٰ عرض أخيه المسلم غيبة ونميمة وسخرية واستهزاء وتطاولا وتعديا.

وكذلك الأموال ترخص ويرىٰ في الفتنة كثير من الناس أن له حق في تلك الأموال ويأخذها ولا يبالي.

فالسلامة في الفتن يحرص عليها المسلم ما معنىٰ السلامة؟ (**بَابُ مَا يَجِبُ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنُ مِنْ طَلَبِ السَّلامَةِ**) أي أن يخرج من الفتنة سليما، لم يعتد علىٰ دم، ولم ينتهك عرضا، ولم ينتهب مالا ، جاء التأكيد عليها مرات عديدة في الأحاديث عن رسول الله ﷺ الدماء والأعراض والأموال فالسلامة في الفتنة أن يخرج ولم يعتد علىٰ دم ولا قطرة دم يتسبب في حصولها، ولا أيضا انتهاك لعرض لا بغيبة ولا بنميمة ولا سخرية ولا غير ذلك، ولا أيضا اعتداء علىٰ مال الآخرين، فالسلامة من الفتن (**وَلُزُومُ الْوَطَنِ**) المراد به لزوم الإنسان مسكنه مكانه لا يشرئب للفتن لا يبحث عنها.

وفي الحديث عن نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه قال: «إن السعيد لمَن جُنِّبَ الفتن».

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٧ - أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَاهِينَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْن عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَارِبِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنِ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ أَبِي كَبْشَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُم فتنا كقطع اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «**كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ**».

---

أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (يَقُولُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ) انتبه لكلمة: (يَقُولُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ) أي أنَّ هٰذا المعنىٰ الذي ذُكر هنا مما يحتاج إليه في الخطابة العامة والبيان والنصيحة للناس، وإذا كان هٰذا الكلام قاله علىٰ المنبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمانه، فما أحوج الناس في مثل هٰذا الزمان أن يخطب علىٰ المنبر بمثل هٰذه المعاني وبمثل هٰذا البيان، والنقل لهٰذه الأحاديث العظيمة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، علىٰ أن بعض الناس عندما يُصاب بشيء من الهوىٰ في الفتن إن سمع بعض الأحاديث تُقال علىٰ المنابر انزعج، تضجَّر، وتضايق، وتمنىٰ أن الخطيب لا يقول هٰذه الأحاديث، وما ذاك إلا أن قلبه أصيب بشيء من الهوىٰ، ولهٰذا وجد في هٰذه البغضة لأحاديث الرسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وتجد بعضهم إذا سمع أحاديث لا توافق هواه اعترض، وقال: ليس هٰذا وقتها، وإذا كانت توافق هواه قبلها.

وهٰذه مصيبة من المصائب التي ابتلىٰ بها كثير من الناس عندما تشرئب الفتن ويصاب بشيء منها.

قال: (قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُم فتنا كقطع اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ») هٰذا إخبار من النبي ﷺ بأمر كوني قضاه الله ﷻ وقدره، وهو كائن وواقع.

وإخبار النبي ﷺ لنا بذلك ليس إخبارا مجرَّدًا بل لبيان ما ينبغي أن يكون عليه المسلم الصادق مع الله ﷻ في مثل ذلك الوقت الذي تكون فيه الفتن التي كقطع الليل المظلم.

وما معنىٰ قوله: «كقطع اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ»؟ حتىٰ تفهم ذلك تصوّر حال شخص له وُجهة معينة له طريق معين يريد الوصول إليه، ولكنه في ليل مظلم وليس لديه مصباح، كيف تكون حاله؟ وكيف يكون سيره؟ وفي طريقه مثلا أخشاب ، في طريقه حفر، في طريقه كذا، قطع الليل المظلم السائر فيها لا يبصر طريقه، ولهٰذا لا ينجو في الفتن إلا من نجاه الله وصدق في لجوئه إلىٰ الله ﷻ.

قال: «يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا» بمعنىٰ أنَّ فيه تقلُّبات، ليست القضية في الفتن أن مثلا يتحول من سنة إلا بدعة، أو من طاعة إلىٰ معصية؛ بل يبلغ الأمر أن يتحول بعض الناس من الإيمان إلىٰ الكفر.

وهٰذا تنبيه إذا كان هناك تحول من الإيمان إلىٰ الكفر، فمن باب أولىٰ أن يكون هناك تحولات دون ذلك؛ تحول من سنة إلىٰ بدعة تحول من طاعة إلىٰ معصية، إذا كان هناك تحول من إيمان إلىٰ كفر فهٰذه

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

من باب أولىٰ، فنبه بالأشد علىٰ ما هو دونه، فالفتن فيها تحولات كبيرة، تحول من طاعة إلىٰ معصية من سنة إلىٰ بدعة يتحول من إيمان إلىٰ كفر، فالتحوّلات تكثر في الفتن إلا من ثبته الله ﷻ وسلَّمه وعافاه.

قال: «وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا» أيضا علىٰ خط آخر في الفتن تكون الفتن سببا لهدايته، والله ﷻ يجعل له نظرا آخر إلىٰ الفتن فيصلح وتتحول حاله إلىٰ الهداية.

ثم بيَّن -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما المطلوب في الفتن، وأنَّ الواجب علىٰ العبد أن لا يستشرف للفتن ولا يبرز لها.

قال: «الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» بمعنىٰ كل ما كان أبعد عن الفتن كان أسلم وكل ما كان أقرب إليها كان أخطر عليه، فإذا كان قاعدا فهو خير من القائم، وإذا كان قائما فهو خير من الماشي، وإذا كان ماشيا كان خيرا من الساعي بمعنىٰ أنه كل ما كان أقرب من الفتن كان أشد وأخطر عليه وكلما كان أبعد عنها كان أسلم له.

قالوا: (قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟) وهٰذا السؤال إنما يطرحه الحريص، كما كان حالهم رضي الله عنهم، قال: «كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ» أحلاس البيوت اي ملازمين للبيوت مثل الفراش الذي في البيت، أي يلازم الإنسان بيته ولا يشرئب لهٰذه الفتن، ولا يكون له فيها يد ولا لسان ولا مشاركة طلبا للمعافاة والسلامة.

الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في كتابه «زاد المعاد»[1] وهو يتكلم عن أنواع الفتن؛ لأن كلمة الفتنة لها إطلاقات ولها معاني بحسب السياق الذي وردت فيه: **(وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلىٰ نفسه أو يضيفها رسوله ﷺ إليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[الأنعام:٥٣]، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾[الأعراف:٥٥]، فتلك بمعنىٰ آخر، وهي بمعنىٰ الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب)** كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء] **(فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام)** وهي التي مرت معنا في الحديث «إن بين أيديكم فتنا» **(كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين حتىٰ يتقاتلوا ويتهاجروا لونا آخر، وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ: «ستكون فيها القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي»، وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ باعتزال الطائفتين هي هٰذه الفتنة، هٰذا النوع وهٰذا اللون من الفتن، وقد تأتي الفتنة مرادا بها المعصية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[التوبة:٤٩]، يقوله جد ابن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك، يقول: إئذن لي في القعود ولا تفتني بتعريضي لبنات بني الأصفر فإني لا أصبر عنهن، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي وقعوا في فتنة النفاق وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر)**. انتهىٰ كلام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ.

---

(١) (٣/ ١٥٣).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٨ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ بِشْرَانَ الْوَاعِظُ الزَّاهِدُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْآجُرِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَىٰ الْحُلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ يَسْتَشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْ لَهُ، وَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»

---

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الحديث حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو بمعنىٰ لالحديث الذي قبله حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ يَسْتَشْرِفْ لَهَا) أي يبرز لها، ويسعىٰ في طلبها، ويمشي إليها ويبحث عنهاخ تستشرف له، وإذا استشرفت له الفتنة وكان من أهلها أهلكته.

قال: (وَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ) مثل ما تقدَّم في الحديث الذي قبلهن (قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ»).

فإذن هٰذا وما قبله يدلُّ علىٰ أن الواجب علىٰ المسلم في الفتن طلب السلامة، والامساك عن الخوض في الفتن، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «حادي الأرواح»[1]: (**والإمساك في الفتنة سنة ماضية واجب احترامها، فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك، ولا تعن علىٰ الفتنة بيد ولا لسان، ولٰكِن أكفف لسانك ويدك وهواك والله المعين**).

---

(١) (ص٤١١).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٢٩ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رِزْقَوَيْهِ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا وَقَعَتْ فِتْنَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ لِأَهْلِهِ: إِنِّي قد جُننت فقيدوني. فَلَمَّا زَالَتِ الْفِتْنَةُ قَالَ لَهُمْ: حُلُّوا قَيْدِي، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الْجُنُونِ وَعَافَانِي مِنْ فِتْنَةِ عُثْمَانَ.

ثم أورد أثر طاووس قال: (لَمَّا وَقَعَتْ فِتْنَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أي الفتنة التي كانت في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه (قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ لِأَهْلِهِ: إِنِّي قد جُننت فقيِّدوني) وهٰذا الخبر إن صح الإسناد فلعل هٰذا الرجل وجد من نفسه ما يخشىٰ عليها منها من وقوع في دم حرام أو تعد ظالم، وعلم من نفسه هيجانا في مثل ذلك، فخشي أن يكون مثل ذلك فقال: (إِنِّي قد جُننت فقيدوني) فقيدوه.

والأمر في الهدي هدي النبي ﷺ لم يبلغ هٰذا المبلغ، وإنما أمر الإنسان بمجاهدة النفس ولزوم البيت دون أن يبلغ الأمر هٰذا المبلغ؛ لأن ثمة فرائض تحتاج أن يكون طليق اليدين ويصلي ويؤذدي عبادة الله، فالأمر في هدي النبوي ما جاءؤ بمثل هٰذا؛ لٰكِن إن صح الإسناد فهٰذا الرجل خشي علىٰ نفسه أن يقع منه أمر عظيم، وعلم من نفسه أنها هاجت فخشي واعتبر ذلك جنونا وجد في نفسه فخشي أن يقع منه شيئا فطلب منهم ما طلب.

قال: (فَلَمَّا زَالَتِ الْفِتْنَةُ قَالَ لَهُمْ: حُلُّوا قَيْدِي، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الْجُنُونِ)، وقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الْجُنُونِ) فيه إشارة أن نفسه أصابها هيجان وعدم انضباط وكان خشي من نفسه أن يقع شيئا أن لا يحمد عاقبته؛ فقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الْجُنُونِ وَعَافَانِي مِنْ فِتْنَةِ عُثْمَانَ) أي أنه لم يكن له فيها خوض لا بيد ولا بلسان.

وقول هٰذا الرجل: إنني قد جننت، ربما أنه يحكي حقيقة تقع لبعض الناس، يعني في الفتن يصاب بشيء من الاختلال وعدم الانضباط وعدم الاتزان، فيتعامل مع الأمور بلا عقل، وإنما يتعامل معها بهيجان النفس دون أناة وتروٍّ وإعمال للعقل، فيتعامل مع الأمور بلا تؤدة، وبتهور وإندفاع، ثم يكون منه أمورٌ لا يحمد عاقبتها.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٠ - أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْبَزَّازُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْهَرَوِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ السَّمَرْقَنْدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مُعَاذٍ الرَّازِيَّ، يَقُولُ: إِلَهِي أَدْعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ فَأَجِبْنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ، إِلَهِي إِذَا شَهِدَ لِيَ الْإِيمَانُ بِتَوْحِيدِكَ وَنَطَقَ لِسَانِي بِتَحْمِيدِكَ وَدَلَّنِي الْقُرْآنُ عَلَىٰ فَوَاضِلِ جُودِكَ، وَيَشْفَعُ لِي مُحَمَّدٌ خَيْرُ عَبِيدِكَ فَكَيْفَ لَا يَبْتَهِجُ رَجَائِي بِحُسْنِ مَوْعُودِكَ.

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الأثر عن يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وهو مناجاة ودعاء، يقول فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِلَهِي أَدْعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ) أدعوك وأنا مستشعر نعمتك علي وأن الفضل فضلك والمن منك، (فَأَجِبْنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ) أي بأنك أنت الكريم المان المتفضِّل (إِلَهِي إِذَا شَهِدَ لِيَ الْإِيمَانُ بِتَوْحِيدِكَ)، والتوحيد هو أعظم مطلب وأجلُّ مقصد وأعظم وسيلة (وَنَطَقَ لِسَانِي بِتَحْمِيدِكَ) اشتغل لساني حمدا وثناء عليك، (وَدَلَّنِي الْقُرْآنُ عَلَىٰ فَوَاضِلِ جُودِكَ).

أنت المتفضل الجواد المنعم (وَيَشْفَعُ لِي مُحَمَّدٌ خَيْرُ عَبِيدِكَ) وهٰذا فيه ذكر شفاعة النبي ﷺ لأهل التوحيد لأنه ذكر التوحيد والتحميد، وفي الحديث قال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه».

هو يتحدث عن رجائه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذه كلها مناجاة لله عَزَّوَجَلَّ، ومما يرجوه من الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله من هؤلاء أهل التوحيد الذين يشفع لهم النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه (فَكَيْفَ لَا يَبْتَهِجُ رَجَائِي بِحُسْنِ مَوْعُودِكَ).

وهٰذا دعاء ومناجاة ينقل عنه عن يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، لٰكِن يبقىٰ أن يقال: إن الدعاء المأثور عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- جمع بين أمرين عظيمين لابد من التنبُّه لهما:

**الأول**: أن دعواته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- اشتملت علىٰ غاية المطالب العلية، وكمال المقاصد الرفيعة.

وفي الوقت نفسه دعواته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- سالمة معصومة لا خطأ فيها ولا زلل؛ لأنها دعوات معصومة ليس فيها خطأ.

وما سواه ليس كلام نبي بمعصوم قد يكون فيه نقص، قد يكون غيره أولىٰ منه، ولهٰذا دعوة النبي ﷺ ودعواته المأثورة جمعت الخير كله، وإذا وُفق المسلم وحفظها والعناية بها فقد وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجِماع الخير وجماع المطالب، ولا يمنع ذلك المسلم إذا عرضت له حاجة أو حاجات معينة أن يناجي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويسأله تلك الحاجة ويسميها؛ لكن دائما تكون العناية بالدعوات العظيمة المأثورة عن النبي ﷺ التي هي جوامع الكلم وجمعت الخير كله، وسالمة ومعصومة لا خطأ فيها ولا زلل.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣١ - وَكَانَ يَحْيَىٰ كَثِيرًا يَطْلُبُ الْخُلْوَةَ وَالتَّفَرُّدَ مِنَ النَّاسِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَخُوهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي كَمْ تَتْرُكُ مِنَ النَّاسِ إِنْ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّاسِ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَحْيَىٰ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ كُنْتُ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ اللهِ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْيَىٰ يَقُولُ:

دَعُوا بِاللهِ تَعْذَالِي ... فَمَا أَنْ تَفْهَمُوا حَالِي
دَعُونِي وَاخْرُجُوا عَنِّي ... رِجَالَ الْقِيلِ وَالْقَالِ
فَيَا شَوْقِي إِلَىٰ شَخْصٍ ... إِلَىٰ الرَّحْمَنِ مَيَّالِ
وَفِي سِرٍّ مِنَ الْأَسْرِ ... ارِ حَطَّاطٍ وَرَحَّالِ

---

قال: (وَكَانَ يَحْيَىٰ) أي ابن معاذ الرازي (كَثِيرًا يَطْلُبُ الْخُلْوَةَ وَالتَّفَرُّدَ مِنَ النَّاسِ) يعني يؤثر عدم الخُلطة بالنَّاس، ويؤثر التفرُّد، (فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَخُوهُ ذَاتَ يَوْمٍ) أي يلومه علىٰ ذلك (فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي كَمْ تَتْرُكُ مِنَ النَّاسِ) أي لا تخالطهم ولا تجالسهم ولا تؤانسهم (إِنْ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّاسِ)، إن كنت منهم لابد أن تخالطهم وأن تجالسهم، قال: (فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَحْيَىٰ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ كُنْتُ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ اللهِ) أي تعبُّدًا وخضوعا والتجاءً إلىٰ الله سبحانه (ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْيَىٰ يَقُولُ:) مبيِّنا سبب الحال التي هو عليها مبررًا ما فضله من الخلوة والتفرُّد من الناس قال: (دَعُوا بِاللهِ تَعْذَالِي) أي لا تلوموني، (فَمَا أَنْ تَفْهَمُوا حَالِي) لا تلوموني علىٰ ما أنا عليه والحال التي أنا عليها، لأنكم لن تفهموا حالي ولم تفهموا السبب الذي دعاني إلىٰ ذلك.

(دَعُونِي وَاخْرُجُوا عَنِّي ... رِجَالَ الْقِيلِ وَالْقَالِ)

بمعنىٰ أنه وجد حالهم هكذا قيل وقال ، مثلا غيبة ونميمة وسخرية وأشياء من هٰذا القبيل، قال:

(فَيَا شَوْقِي إِلَىٰ شَخْصٍ ... إِلَىٰ الرَّحْمَنِ مَيَّالِ)

بمعنىٰ أني لا أمتنع من المخالطة لو كنت أجد شخصا يعينني علىٰ الطاعة وعلىٰ العبادة يشد من أزري ويقوِّمني، أنا أتمنىٰ أن أجد شخصا تكون هٰذه حاله،

(وَفِي سِرٍّ مِنَ الْأَسْرِ ... ارِ حَطَّاطٍ وَرَحَّالِ)

أي يكون حافظًا سر أخيه ومعوانًا له علىٰ الخير.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٢ - وَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ:

مَـنْ حَمِـدَ النَّـاسَ وَلَـمْ يَـبْلُهُمْ ثُـمَّ بَلَاهُـمْ ذَمَّ مَـنْ يَحْمَـدُ

وَصَـارَ بِالْوَحْـدَةِ مُسْتَأْنِسًـا يُوحِشُـهُ الْأَقْـرَبُ وَالْأَبْعَـدُ

---

ثم أورد هذين البيتين لـ(إِبْرَاهِيم بْن عَبْدِ الْمَلِكِ) قال: (مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ) حمدهم أي اثنىٰ عليهم ومدحهم وأعجبوه، ولم يبلهم ولم يمتحنهم، ويعرف أحوالهم جيِّدا (ثُمَّ بَلَاهُمْ) عرفهم وعرف حالهم (ذَمَّ مَنْ يَحْمَدُ).

(وَصَـارَ بِالْوَحْـدَةِ مُسْتَأْنِسًـا يُوحِشُـهُ الْأَقْـرَبُ وَالْأَبْعَـدُ)

ولٰكِن مع ذلك وأيضا في كل زمان لا يزال الخير باقٍ، والإنسان في هٰذا الباب يتوسط ويعتدل يجانب الشر والفساد والظلمات وأهل الباطل ويحرص علىٰ الخير والاعتدال والسنة، والتوسُّط، فالدين وسط لا غلو ولا جفاء لا ينحرف الإنسان عن الباطل ولا أيضا يهجر الحق وأهل الخير وأهل الفضل بل يكون متوسطا.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٣ - وَأَنْشَدَ الْحُسَيْنُ بن عبد الرَّحْمَن:

طِبْ عن الْأُمَّةِ نَفْسًا ... وَارْضَ بِالْوَحْدَةِ أُنْسًا

مَا رَأَيْنَا أَحَدًا يَسْوَىٰ ... عَلَىٰ الْخِبْرَةِ فَلْسًا

يقول هٰذا الشَّاعر: (طِبْ عن الْأُمَّةِ نَفْسًا) أي لن تجد من تأنس به مجالسته وتنعم بمرافقته ومصاحبته (وَارْضَ بِالْوَحْدَةِ أُنْسًا) لن تجد مثل الوحدة أي الإنفراد والخلوة بنفسك لن تجد أنسا مثل ذلك، (مَا رَأَيْنَا أَحَدًا يَسْوَىٰ عَلَىٰ الْخِبْرَةِ) يعني عند الاختبار والامتحان (فَلْسًا) يعني كل من اختبرناه وجدناه لا يساوي فلسا.

هٰذا يتحدث عن الشيء الذي رآه هو، لٰكِن يبقىٰ الخير ويبقىٰ رجال بفضل الله ﷻ في كل زمان، وهٰذا الأنس الذيس ذكره باعتبار الحال التي هو كان عليها، أيضا الأشخاص الذين قدر أن يكون لقاءه بهم، ثم توصلالنتيجة أن الأنس يكون بذلك.

يقول ابن القيم في كتابه «الفوائد»[1]: (**من فقد أنسه بالله بين الناس**) يعني لم يجد أنس بين الناس إنما وجده في الوحدة ،، (**ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول**)، أي أصابته علة، ففي خلوته لا يأنس، بينما المؤمن الصادق في خلوته أنس بالله، وتكون فرصة له لمزيد الصلة بالله والدعاء والأنس بذكره ومناجاته ﷻ (**ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود**)،

بقي ماذا؟ قال: (**ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله**). وهو كلام متين كما ترون.

---

(١) (ص٤٣).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٤ - وَأَنْشَدَ أَبُو بَكْرِ بْنُ مُسْلِمٍ:

تَوَحَّشْ مِنَ الْإِخْوَانِ لَا تَبْغِ مُؤْنِسًا ... وَلَا تَتَّخِذْ خِلًّا وَلَا تَبْغِ صَاحِبًا
وَكُنْ سَامِرِيَّ الْفِعْلِ مِنْ نَسْلِ آدَمَ ... وَكُنْ أَوْحَدِيًّا مَا حَيِيتَ مُجَانِبًا
فَقَدْ فَسَدَ الْإِخْوَانُ وَالْحُبُّ وَالْهَوَى ... فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا صَدُوقًا وَكَاذِبًا
فَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ يُقَالَ مُدَهْدَهٌ ... وَتُنْكَرُ أَحْوَالِي لَقَدْ صِرْتُ رَاهِبًا

هٰذا أيضا مثل ما سبق لاستيحاش من الإخوان وإيثار الوحدة؛ لأنه لم يجد؛ لٰكِن من صدق مع الله ﷻ في طلب التوفيق لإخوان الخير ورفقة الصلاح وتحراهم فإنه يجد بإذن الله والخير باق، لٰكِن يحتاج الإنسان في هٰذا المقام أن يتفقه فيمن يجالس، ولا ييأس قد قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، ما دعا إلىٰ الانقطاع؛ لٰكِن يتفقه الإنسان وينظر فيمن يخالل، والخير باق، «ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق» فإذا وجد من شخص أنه يعينه علىٰ الخير ويؤازر عليه ويشد من أزره، فرح بصحبته وبملازمته، أما من من ووجد من يعينه علىٰ الشر أو علىٰ الفساد أو علىٰ الأهواء أو علىٰ الباطل يحذر من ذلك.

وهٰذا الناظم كالذي مر معنا في ذكر الحال التي واجهها، قال:

(تَوَحَّشْ مِنَ الْإِخْوَانِ لَا تَبْغِ مُؤْنِسًا ... وَلَا تَتَّخِذْ خِلًّا وَلَا تَبْغِ صَاحِبًا
وَكُنْ سَامِرِيَّ الْفِعْلِ مِنْ نَسْلِ آدَمَ ... وَكُنْ أَوْحَدِيًّا مَا حَيِيتَ مُجَانِبًا)

(سَامِرِيَّ الْفِعْلِ) أي كن في فعلك سامري، والسامري مثل ما جاء في الآية ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[طه:٩٧] لا أحد يقربني ولا أحد يمسني، عوقب بذلك، وقيل في بعض كتب التفسير: أنه إن مسه أحد أصيب باشتداد في حرارة جسمه فيحرص أن لا أحد يقربه ولا أحد يلمسه، فيقول هٰذا: (وَكُنْ سَامِرِيَّ الْفِعْلِ)، والسامري الذي كان عليه عقوبة له، أن لا مسه أحد لٰكِن هٰذا المعنىٰ لا يطلب المسلم بل يقترب من إخوانه ويتعاون معهم علىٰ الخير ويحرص علىٰ الخير، وأن يكون من أهله، ولٰكِن يتجنب الشر، ويتجنب الفساد، ويتجنب الفتن ويتجنب مواردها.

يقول معللا ما سبق:

(فَقَدْ فَسَدَ الْإِخْوَانُ وَالْحُبُّ وَالْهَوَى ... فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا صَدُوقًا وَكَاذِبًا)

أي إلا من من جمع بينهما، قد يكون هٰذا. أو ترىٰ صدوقا وترىٰ كاذبا، وهٰذا المعنىٰ هو الصحيح، فإن الناس فيهم صدوق وفيهم كذوب، إذا كان فيهم صدوق وفيهم كذوب تجنب الكذوب ورافق الصدوق.

قال: (فَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ يُقَالَ: مُدَهْدَهٌ) تعرفون كلمة (مُدَهْدَهٌ)؟ مستعملة، هٰذه الكلمة حتىٰ هٰذا الوقت، ربما تغير فيها أسلوب النطق وإلا فهي موجودة حتىٰ وقتنا هٰذا.

الإنسان الخبل، فاقد الوعي، يقال له: مُدَهْدَهْ، وبعض المناطق يقولون: دُهْدُوه. يعني فاقد وعيه، هٰذا هو نفس المعنىٰ، يعني كلمة عربية هٰذا معناها حتىٰ في كتب اللغة. فهو يقول: (فَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ يُقَالَ مُدَهْدَهٌ)

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

أي غير واعٍ، (وَتُنْكِرُ أَحْوَالِي لَقَدْ صِرْتُ رَاهِبًا).

علىٰ كل مثل هٰذه المور الاعتدال مطلوب والاعتداء بهدي النبي ﷺ مطلوب والمسلم مطالب بتجنب الشر والفساد وملازمة الحق والهدىٰ، والتوفيق بيد الله ﷻ وحده لا شريك له.

نسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يهدينا إليه صراطا مستقيما، وأن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجنبنا والمسلمين أينما كانوا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

بقي لنا من الكتاب باب واحد، ونتوقف ونكمل إن شاء الله بعد راحة يسيرة للإخوان.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

## المجلس الثالث

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا اله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فنواصل القراءة في هٰذه الرسالة لابن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ «الرسالة المغية في السكوت ولزوم البيوت»:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

**بَابُ الاشْتِغَالِ بِمَا يُغْنِي وَتَرْكُ الْخَوْضِ فِيمَا لا يَعْنِي**

---

قال ابن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابُ الاشْتِغَالِ بِمَا يُغْنِي وَتَرْكُ الْخَوْضِ فِيمَا لا يَعْنِي**) هٰذه الترجمة عقدها للحث عن أمر والتحذير من أمر آخر، فقعدها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لبيان أهمية اشتغال الإنسان بما يغنيه، ومعنىٰ (يغنيه) يكون فلاحه وانتفاعه وسعادته في دنياه وأخراه، فالمراد (**بِمَا يُغْنِي**) أي في أمر دينك ودنياك، وتكون سعادتك في الدنيا والآخرة هٰذا ينبغي أن يشتغل به العبد ويتوافر عليه أوقاته.

(**وَتَرْكِ الْخَوْضِ فِيمَا لا يَعْنِي**) أي يتجنَّب الخوض فيما لا يعنيه، والمُراد (ما لا يعنيه) أي من الأقوال واللافعال في دينه ومصلحته ومنفعته.

موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٥ - أَخْبَرَنَا أبوعلي الْحَسَنُ بْنُ شِهَابِ بْنِ الْحَسَنِ الْعُكْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حِمْدَانَ بْنِ بَطَّةَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحُلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ دِينَارٍ الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا يزيد بن عبد ربه، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

أورد تحت هٰذه الترجمة حديث أبي هريرة قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ») قوله: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ» هٰذا يفيد أن افسلام يزيد وينقص ويقوىٰ ويضعف ويتفاوت أهله فيه بحسب حالهم وحظهم من أعمال الإسلام، بما في ذلك تجنب الحرام.

وهٰذا أيضا يفيد أن الإسلام كما أنه يزيد بفعل الطاعات فإنه كذلك يزيد بتجنب المعاصي والخطيئات؛ لأن الحديث دل علىٰ أنَّ ترك المعصية إسلام، كما أن فعل الطاعة إسلام، فمن الإسلام ترك ما لا يعني، كما أن من الإسلام فعل ما يُغني، كما واضح في الترجمة التي بوب لها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

فقوله: «تَرْكُهُ» وهٰذا يفيد أن الترك إسلام، وقد تقدم لنا ذكر حديث أبي هريرة «لا يزني الزني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق، وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» وهٰذا يفيد فائدة مهمة جدا في تعريف الإيمان أن مما يدخل في مسمىٰ الإيمان ترك المحرمات، كما أنه يدخل في مسمىٰ الإيمان فعل الطاعات، فالإيمان فعل وترك فعل لما أمر الله به وترك لما نهىٰ الله ﷻ عنه، فكما أن فعل الطاعات إيمان فإن ترك المعاصي أيضا إيمان.

وقوله: «مَا لَا يَعْنِيهِ» أي ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، قال الحافظ ابن رجب في شرحه لهٰذا الحديث في كتابه «الجامع»: (ومعنىٰ أن هٰذا الحديث أن من حسن إسلامه تركه ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر علىٰ ما يعنيه من الأقوال والأفعال)، يترك ما لا يعنيه من الأفعال ويقتصر ما يعنيه من الأقوال والأفعال (ومعنىٰ يعنيه أنه تتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء، يقال: عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به، ولا إرادة بحكم الهوىٰ وطلب النفس) لأن بعض الناس قد يفهم الحديث بهذا المعنىٰ «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» أي ما لا يكون له ميل فيه ولا تطلبه نفسه، يقول رَحِمَهُ اللهُ : (وليس المراد أن يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوىٰ وطلب النفس؛ بل بحكم الشرع والإسلام).

وهٰذا تنبيه مهم جدا في معنىٰ الحديث يغيب عن كثير من أذهان الناس.

(ولهٰذا جعله من حسن الإسلام، فإذا حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال.)

ولهٰذا بعض الناس علىٰ أنه خطأ رَحِمَهُ اللهُ يخطئ في فهم الحديث، تجد مثلا إنسان بحكمة وأناة وأسلوب جيد ينهىٰ عن منكر، فيقول له آخر: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» ينهاه، هٰذا من

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

الخطا في فهم الحديث؛ لأن الحديث ليس المراد به ما يعنيه بحكم الهوىٰ أو الطبع أو ميل النفس، وإنما يعنيه بحكم الشرع والإسلام، فمما يعني المسلم بحكم الشرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هٰذا مطلوب منه بحكم الشرع، بعض الناس عندما يخطئ في فهم الحديث يحمل علىٰ مثل هٰذا الفهم هٰذا الحديث الخاطئ .

قال: (فإذا حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال وإذا حسن الإسلام اقتضىٰ ترك ما لا يعنيه كله؛ من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها فإن هٰذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه) .

وانظر إلىٰ هٰذا الفقه والفهم للحديث: عندما يتجنب الإنسان المحرم ترك ما لا يعنيه، عندما يتجنب المكروه ترك ما لا يعنيه، عندما يتجنب المشتبه ترك ما لا يعنيه ، ترك ما لا يعنيه بحكم الشرع وهٰذا هو فهم الحديث والذي به يكمل إسلام المرء.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٦ - وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُلَاعِبٍ، حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ، حَدَّثَنَا عِصَامُ بْنُ طُلَيْقٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ».

ثم أورد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هٰذا الحديث حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) وهٰذا المعنىٰ دلَّت عليه نصوص كثيرة جدا أنَّ أكثر الذُّنوب تنطلق من اللسان، قد مر معنا الحديث أن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا وإذا اعوججت اعوججنا»، فاعوجاج اللسان يترتب عليه اعوجاج الجوارح كلها، وفي الحديث «لا يستقيم إيمان امرئ حتىٰ يستقيم لسانه»، فاستقامة اللسان به استقامة البدن، واعوجاج اللسان به اعوجاج البدن وجميع الجوارح، فمن كثر كلامه فيما لا يعنيه؛ كثرت ذنوبه.

ماذا يدخل تحت قوله: (أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ)؟ الغيبة، النميمة، السخرية، الكذب، الاستهزاء.. إلىٰ غير ذلك من الأقوال الباطلة المحرمة كلها لا تعني المسلم بحكم الشرع، ما معنىٰ لا تعنيه؟ لا ينبغي أن يصرف لها عنايته واهتمامه؛ بل يبتعد عنها لا ينبغي أن تتجه لها عناية المسلم؛ لأنها لا تعنيه بحكم الشرع، نهاه الله عنها ونهاه رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فإن لم يبال بذلك وأخذ يتكلم فيما لا يعنيه كثرت ذنوبه، ومثل هٰذا المعنىٰ ما جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولىٰ به. وهٰذا المعنىٰ جاء في نصوص وآثار كثيرة عن السلف.

وإسناد هٰذا الحديث فيه (عِصَامُ بْنُ طُلَيْقٍ) قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: مجهول ومنكر الحديث. فهو إسناد ضعيف؛ لٰكِن رواه الإمام أحمد في «الزهد» موقوفا علىٰ سلمان، ورواه الوكيع في «الزهد» موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود، وهو من حيث المعنىٰ واضح، ويشهد لصحة المعنىٰ وقوته نصوص كثيرة أشرتُ إلىٰ بعضها.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٧ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ الْعَطَّارُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الصَّوَّافِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَوْنٍ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: قَدْ أَوْجَبْتُ، قَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا عَمِلْتُ كَبِيرَةً، فَأُرِيَتْ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهَا: يَا فُلَانَةُ أَنْتِ الْقَائِلَةُ كَذَا وَكَذَا وَأَنْتِ تَنْطِقِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيكِ وَتَمْنَعِينَ مَا لَا يَضُرُّكِ.

ثم أورد هٰذا الأثر (عَنْ عَوْنٍ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: قَدْ أَوْجَبْتُ) ومعنة (أَوْجَبْتُ) والله تعالىٰ أعلم وجبت لي الجنة، وجبت لي النجاة، وذكرت ما تعلمه من نفسها قال: (قَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا عَمِلْتُ كَبِيرَةً) بايعته علىٰ الطاعة والعبادة والبعد عن الشرك بالله والبعد عن الزنا والإتيان بالبهتان ونحو ذلك، وتقول: (فَأُرِيَتْ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهَا: يَا فُلَانَةُ أَنْتِ الْقَائِلَةُ كَذَا وَكَذَا-أي: (قَدْ أَوْجَبْتُ...)- وَأَنْتِ تَنْطِقِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيكِ وَتَمْنَعِينَ مَالَا يَضُرُّكِ).

فالشاهد منه أنه قيل لها في هٰذه الرؤيا: (وَأَنْتِ تَنْطِقِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيكِ) وهٰذه الرؤيا إن صحت فيها شاهد لكلام أهل العلم أن الرؤىٰ المنامية تكون للبشارة وتكون للنذارة لا لتقرير الأحكام؛ الأحكام لا يمكن أن تؤخذ من رؤيا منامية، إنما تؤخذ من الشرع كلام الله وكلام رسول الله.

إنما يؤخذ من الرؤىٰ المنامية البشارة والنذارة، البشارة كأن يكون شخص غير مستقيم، ويستقيم فيبدأ يعبد الله فيرىٰ رؤيا مفرحة وسعادته فيستبشر وينشط، وكما قال السلف: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره. تنشطه ولا يغتر.

فتكون للبشارة وتكون للنذارة مثل هٰذه القصة، (وَأَنْتِ تَنْطِقِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيكِ وَتَمْنَعِينَ مَالَا يَضُرُّكِ) هٰذا نذارة لها، إن صح هٰذا الخبر هٰذا من قبيل ما ذكر أهل العلم أن الرؤيا تكون للبشارة وتكون للنذارة.

وأمر اللسان ونطق الإنسان بما لا يعنيه الغيبة النميمة السخرية الكذب الفجور البغض إلىٰ غير ذلك من آثام اللسان أمرها ليس بالهين، أمرها خطير جدا، حتىٰ إن كان الإنسان محافظ علىٰ الصلاة والصيام والصدقات فرضها ونفلها قد جاء في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قيل للرسول ﷺ: إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتتصدق بكذا وكذا.. ذكروا عنها أعظم العبادات الصيام والصدقة والزكاة، الفرض والنفل، تقوم الليل وتصوم النهار وتتصدق بكذا وكذا، وتؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي من أهل النار».

وذكروا له امرأة قالوا: تصلي المكتوبات، وتصوم رمضان، وتتصدق بأثواب، يعني أشياء يسيرة جدا، ولا تؤذي أحدا قال: «هي من أهل الجنة».

فالأولىٰ كانت تقوم الليل وتصوم النهار صوامة قوامة ومنفقة تتصدق بكذا وكذا قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «هي من أهل النار» لما ذكر عنها أنها تؤذي جيرانها بلسانها، فأمر اللسان ليس بالهين.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٨ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْقطَّان، أخبرنَا أبوعمرو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ السَّمَّاكُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو الْحَسَنِ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ نُصَيْرٍ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

خَتَمَ الْمَلَكُ الْخَيْرَ فِي ثَلَاثٍ فِي الْمَنْطِقِ وَالصَّمْتِ وَالنَّظَرِ:

فَمَا كَانَ مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ ذِكْرٍ فَهُوَ لَغْوٌ.

وَمَا كَانَ مِنْ صَمْتٍ فِي غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَهُوَ سَهْوٌ.

وَمَا كَانَ مِنْ مَنْظَرٍ فِي غَيْرِ عِبْرَةٍ فَهُوَ لَهْوٌ.

---

ثم أورد هٰذا الخبر عن (حَجَّاج بْنُ نُصَيْرٍ) وحجاج هٰذا قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال عنه يحيىٰ بن معين: ليس حديثه بشيء. هٰذه حاله ويروي هٰذا الخبر عن عيسىٰ، وكم بينه وبين عيسىٰ بن مريم عليه السلام، فمثل هٰذه الأخبار المرسلة هكذا لا تعتمد، وذِكر أهل العلم لها كما قدمت مثل هٰذه ألشياء يذكرونها لما تشتمل عليه من معاني صحيحة ومعاني جيدة وتذكر استئناسا فقط ولا يعتمد علىٰ شيء منها.

قال عيسىٰ: (خَتَمَ الْمَلَكُ الْخَيْرَ فِي ثَلَاثٍ فِي الْمَنْطِقِ وَالصَّمْتِ وَالنَّظَرِ) يعني أن الخير في هٰذه الثالث عندما تحسن صيانتها: منطق الإنسان وصمته ونظره.

ثم بين ذلك فقال: (فَمَا كَانَ مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ ذِكْرٍ فَهُوَ لَغْوٌ. وَمَا كَانَ مِنْ صَمْتٍ فِي غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَهُوَ سَهْوٌ. وَمَا كَانَ مِنْ مَنْظَرٍ فِي غَيْرِ عِبْرَةٍ فَهُوَ لَهْوٌ.) فقوله: (فَمَا كَانَ مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ ذِكْرٍ فَهُوَ لَغْوٌ..) فيه أن اللسان إن لم يشغل بذكر الله والخير والنافع اشتغل بالباطل؛ لأن اللسان خلق للكلام، فإن لم يشغله صاحبه بالخير اشتغل باللهو واللغو والباطل.

في هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»[1]: **(إن في الاشتغال بالذكر اشتغالا عن الكلام بالباطل من الغيبة واللغو ومدح الناس وذمهم وغير ذلك، فإن الإنسان لا يسكت البتة: فإما لسان ذاكر، وإما لسان لاغ، ولابد من أحدهما، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنته محبة المخلوقين ولابد، وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو وما هو عليك ولابد، فاختر لنفسك إحدىٰ الخطتين وأنزلها في إحدىٰ المنزلتين.)**

---

(١) (ص٨٢).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٣٩ - أخبرنَا أَبُو الفتح هِلَالُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ الْحَفَّارُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ اطْلُبْ مَا يَعْنِيك بترك مَالا يَعْنِيك فَإِن فِي ترك مَالا يَعْنِيكَ دَرَكًا لِمَا يَعْنِيكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتَ وَلَسْتَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا أَخَّرْتَ فَآثِرْ مَا تَلْقَاهُ غَدًا عَلَىٰ مَالَا تَرَاهُ أَبَدًا.

هٰذا كلام عظيم جدا فيه وصية زيد بن علي لابنه، قال: (يَا بُنَيَّ اطْلُبْ مَا يَعْنِيك بترك مَالا يَعْنِيك) إذا قال قائل: كيف أتمكن من ترك ما لا يعنيني؟ يقال: إنما تتمكن ترك ما لا يعنيك بشغل وقتك فيما يعنيك، فإنك إن لم تشغل وقتك فيما لا يعنيك انشغل وقتك فيما لا يعنيك.

فالطريقة السليمة الصحيحة لاشتغال المرء أو لبعد المرء عما لا يعنيه بأن يشغل نفسه فيما يعنيه.

قال: (فَإِن فِي ترك مَالا يَعْنِيكَ دَرَكًا لِمَا يَعْنِيكَ) أكبر عونٍ لك علىٰ إدراك ما يعنيك أن تترك ما لا يعنيك، وهٰذا يفيد أن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه يفوته تحصيل الخير مما يعنيه في دينه ودنياه وطاعته لربه ﷻ.

(وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتَ) يعني الذي تلقاه يوم القيامة هو ما قدمته متقربا به إلىٰ الله، (وَلَسْتَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا أَخَّرْتَ) يعني الأموال والتجارات والأملاك إذا لم تقدم شيئا منها لله لم تقدم عليك؛ لأنك ستترك في الدنيا وتنتهي ولم تقدم عليه يوم القيامة بقول الإنسان: ما لي مالي، وليس للإنسان من ماله إلا ما قدم، الشيء الذي قدمه لله وقربه لله وبذله في سبيل الله هو الذي يلقاه يوم القيامة أما بيوته وتجاراته ومزارعه وأملاكه كلها لا يقدم عليها يوم القيامة إن لم يكن قدمها لله، وبذلها قربة إلىٰ الله ﷻ.

(وَلَسْتَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا أَخَّرْتَ) أي ما تركته في الدنيا ولم تقدمه لله ﷻ.

(فَآثِرْ مَا تَلْقَاهُ غَدًا) أي ممَّا قدمت في سبيل الله (عَلَىٰ مَالَا تَرَاهُ أَبَدًا) إذا مت لن تراه أبدا؛ لأن ليس لك من مالك ما قدَّمت.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٠ - وَفِي مَعْنَاهُ:

اغْتَـنِمْ فِـي الْفَـرَاغ فَضْـلَ رُكُـوع فَعَسَـىٰ أَنْ يَكُـونَ مَوْتُـكَ بَغْتَـهْ
كَـمْ صَـحِيح رَأَيْـتَ مِـنْ غَيْـرِ سُـقْم ذَهَبَـتْ نَفْسُـهُ الصَّـحِيحَةُ فَلْتَـهْ

هٰذا كلام عظيم جدًّا في الحث علىٰ اغتنام الفراغ، والفراغ مغبون فيه كثير من الناس كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، فكثير من الناس عنده صحة لكنه لا يغنمها في شيء يجده في يوم يلقىٰ الله، وعنده سعة من الوقت ولا يغنمه في شيء يجده في يوم يلقىٰ الله، فأكثر الناس مغبون أي خاسر لم يغنم وقته ولم يغنم صحته،

(اغْتَـنِمْ فِـي الْفَـرَاغ فَضْـلَ رُكُـوع فَعَسَـىٰ أَنْ يَكُـونَ مَوْتُـكَ بَغْتَـهْ)

ما تدري قد يفاجئك الموت ولا تدري كنت مثلا تظن أو تؤمل أنك تعيش.

(كَـمْ صَـحِيح رَأَيْـتَ مِـنْ غَيْـرِ سُـقْم ذَهَبَـتْ نَفْسُـهُ الصَّـحِيحَةُ فَلْتَـهْ)

وهٰذا يراه الناس كثيرا في حياتهم، كثير من الناس معافىٰ لا يموت في حادث يموت علىٰ فراشه ويسأل قرابته هل كان يشتكي من شيء يقول: لا والله لٰكِن علىٰ فراشه وجد ميتا.

فمثل هٰذه الأمور ينبغي للإنسان أن يتنبه لها، ويغنم ما آتاه الله من صحة تهيأ لها من وقت فيقدم ما يسشره أن يلقىٰ الله ﷻ به.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤١ - وَأَنْشَدَ آخَرُ:

اعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ حَذَرِ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمَتَ مِنْ عَمَلٍ ... يُحْصَىٰ عَلَيْكَ وَمَا جَمَّعَتَ مَوْرُوثُ

---

يقول هٰذا الناظم (اعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ حَذَرٍ) أي احرص علىٰ تقديم الأعمال وجد واجتهد واحذر من الدنيا أن تفتنك وتشغلك عن طاعة الله ﷻ، (وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثُ) فإذا علمت أنَّك بعد الموت مبعوث فاعلم أن الله سائلك، وإذا علمت أن الله سائلك، فأعد للمسأل جوابا، وليكن الجواب صوابا.

(وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمَتَ مِنْ عَمَلٍ يُحْصَىٰ عَلَيْكَ) أعمالك محصاة عليك وستلقاها يوم تقف بين يدي الله ﷻ.

(وَمَا جَمَّعَتَ مَوْرُوثُ) أي كل ما تجمعه لم ينتقل معك إلىٰ الدار الآخرة، وإنما سيرثه قرابتك كما قال الآخر:

وأموالنا لذوي الميراث نجمعها ... وبيوتنا لخراب الدهر نبنيها

ليس معنىٰ ذلك أن الإنسان لا يعتني بجمع المال واكتساب الرزق، وأن يذر الورثة أغنياء فالشرع جاء بالحث علىٰ ذلك:

لٰكِن لا تكن الدنيا أكبر همه ولا مبلغ همه، هٰذه من جهة.

ومن جهة أخرىٰ أن يؤدي حق الله ﷻ الواجب في المال.

ومن جهة ثالثة أن لا يصرف شيئا من المال الذي من الله به فيما يسخط به ويغضبه ﷻ، مع أن الغالب أن الإنسان إذا كثر ماله يصاب بشيء من الطغيان والتجاوز لحدود شرع الله ﷻ إلا من عافاه الله ﷻ وسلَّمه.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٢ - وَأَنْشَدَ آخَرُ:

اعْمَلْ لِئَلَّا تَسْقَمْ ... فَعُمْرُكَ الْيَوْمَ مغنم
فجد بِهِ لإِلهٍ ... وَسَيِّدٍ لَا يُطْعَمْ
وَإِنْ رَأَيْتَ فُتُورًا ... فَقُلْ لَهُ فَسَتَنْعَمْ
بِقُرْبِ رَبٍّ جَلِيلٍ ... وَمَنْ خَدَمْ فَسَيُخْدَمْ
وَاعْلَمْ يَقِينًا بِفَهْمٍ ... فَأَنْتَ عِنْدِي مُقَدَّمْ
مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ فِعَالًا ... فَسَوْفَ يَوْمًا يَنْدَمْ

وهٰذا أيضا بمعنىٰ ما سبق في الحث علىٰ العمل وأن يستغل الإنسان صحته في العمل قبل أن يسقم ولا يتمكن مع المرض من العمل تمكنه منه وهو في صحة وعافية، وأن الواجب علىٰ الإنسان أن يغتنم عمره وصحته وشبابه كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- : «اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك وشبابك قبل هرمك» وهٰذا معنىٰ قوله: (فَعُمْرُكَ الْيَوْمَ مغنم) وما ذهب من عمرك لا يعود، فاغتنم الوقت؛ لأن كل ما ذهب من وقتك لا يعود، الشباب إذا ذهب لا يعود، واليوم إذا انقضىٰ لا يعود، فينبغي للإنسان أن يغنم عمره بماذا؟ قال: (فجد بِهِ لإِلهٍ) أي عمرك (وَسَيِّدٍ لَا يُطْعَمْ) أي تقرب إلىٰ الله وابذل أوقاتك في التقرب إلىٰ الله ﷻ، وأيضا جانب الفتور والكسر والتواني

(وَإِنْ رَأَيْتَ فُتُورًا ... فَقُلْ لَهُ فَسَتَنْعَمْ)

يعني إن تركت الفتور وجُدت بالطاعة العبادة فإن عاقبة هٰذا البذل والجد والاجتهاد النعيم يوم لقاء الله،

(بِقُرْبِ رَبٍّ جَلِيلٍ ... وَمَنْ خَدَمْ فَسَيُخْدَمْ)

(وَمَنْ خَدَمَ) مراده ببذل العبادة والطاعة واجتهد في طاعة الله ﷻ أي ينعمه الله ﷻ بالجنة بأن يكون مخدوما يخدمه الغلمان وتخدمه الحور وينعم مكرما مخدوما في جنات النعيم

(وَاعْلَمْ يَقِينًا بِفَهْمٍ ... فَأَنْتَ عِنْدِي مُقَدَّمْ
مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ فِعَالًا ... فَسَوْفَ يَوْمًا يَنْدَمْ)

أي من ضيع وقته ولم يحرص علىٰ استغلاله فإنه سيندم علىٰ هٰذا التضييع يوم يلقىٰ الله ﷻ ولا ينفعه يومئذ الندم.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٣ - أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ حَمْزَةُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرٍ الدَّقَّاقُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ بَهْتَهْ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الرَّبِيعِ، قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: طَلَبْتُ الرَّاحَةَ لِنَفْسِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَرْوَحَ لَهَا مِنْ تَرْكِ مَالَا يَعْنِيهَا.

وهٰذا كلام عظيم ينقل عن هٰذا الأعرابي أنه عمل علىٰ طلب الراحة لنفسه قال: (فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَرْوَحَ لَهَا مِنْ تَرْكِ مَالَا يَعْنِيهَا) لم أجد أمرًا أجد فيه راحة نفسي مثل ترك ما لا يعنيها.

موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٤ - وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللهِ عَنْ عَبْدِهِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.

قال: (وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللهِ عَنْ عَبْدِهِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.) وبنحو هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم في أحد كتبه وأظنه ينقل عن بعض السلف: من علامة المقت إضاعة الوقت. وهنا الحسن يقول: (مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللهِ عَنْ عَبْدِهِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) وتأمل هٰذا في قول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» قال أهل العلم مفهوم المخالفة أن من لم يشتغل بالفقه في الدين هٰذا من علامة عدم إرادة الخير به؛ لأن من أراد الله به خيرا فقهه في الدين شغله ما لا يعنيه من معرفة دينه الذي خلقه الله ﷻ لأجله وأوجده لتحقيقه.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٥ - وَقَالَ غَيْرُهُ: هَلَاكُ النَّاسِ فِي خَصْلَتَيْنِ فُضُولِ مَالٍ وَفُضُولِ مَقَالٍ.

قال: (وَقَالَ غَيْرُهُ: هَلَاكُ النَّاسِ فِي خَصْلَتَيْنِ فُضُولِ مَالٍ وَفُضُولِ مَقَالٍ) هٰذا فيه أن الهلاك في هلاك الإنسان في الفضول، والفضول يكون في المال، مثل ما جاء هنا (فُضُولِ مَالٍ)ويكون في المقال فضول المقال ، ويكون أيضا في السمع ، فضول السمع، ويكون أيضا في البصر فضول البصر، وهٰذه الأربع كلها مهلكات.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ له فيها كلام موسع أظنه في أواخر كتابه «حادي الأرواح».

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

٤٦ - وَقَالَ شُمَيْطُ بْنُ عَجْلَانَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَسَمَ الدُّنْيَا بِالْوَحْشَةِ لِيَكُون أنس المطيعين بِهِ.

بهذا الأثر ختم الرسالة قال: (وَقَالَ شُمَيْطُ بْنُ عَجْلَانَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَسَمَ الدُّنْيَا بِالْوَحْشَةِ لِيَكُون أنس المطيعين بِهِ) الدنيا وُسمت بالوحشة لأنها دار الوحشة بمعنىٰ أن الإنسان إن لم يشتغل بالأنس وذكر الله وطاعته يستوحش، وكلما بعد عن ذكر الله ﷻ أصابه من الوحشة في هٰذه الدنيا بحسب بعده عن ذكر الله ﷻ، فالدنيا دار الوحشة، ولا يؤنس فيها إلا بذكر الله .

ﷻ قال: (إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَسَمَ الدُّنْيَا بِالْوَحْشَةِ لِيَكُون أنس المطيعين بِهِ).

وهٰذا الأثر رواه أبو نعيم في «الحلية» بلفظ: قال أبو هاشم الزاهد: إن الله تعالىٰ وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المريدين به دونها، وليقبل المطيعون إليهم بالاعراض عنها، فأهل المعرفة بالله فيها مستوحشون وإلىٰ الآخرة مشتاقون.

وعلىٰ كل معنىٰ قول الشميط بن عجلان (إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَسَمَ الدُّنْيَا بِالْوَحْشَةِ لِيَكُون أنس المطيعين بِهِ) أي أنه لا أنس إلا بطاعة الله وحسن الإقبال عليه ﷻ.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

[وآخر الرسالة] وَالْحَمْد لله وصلواته علىٰ سيدنَا مُحَمَّد وَآله.

وأسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علما وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطا مستقيما، وأن يغفر لنا ولوالدينا، وللمسلمين والمسلمات والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللّٰهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به مصائب الدنيا.

اللّٰهمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ ما عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك، أشهد ألا إلٰه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com